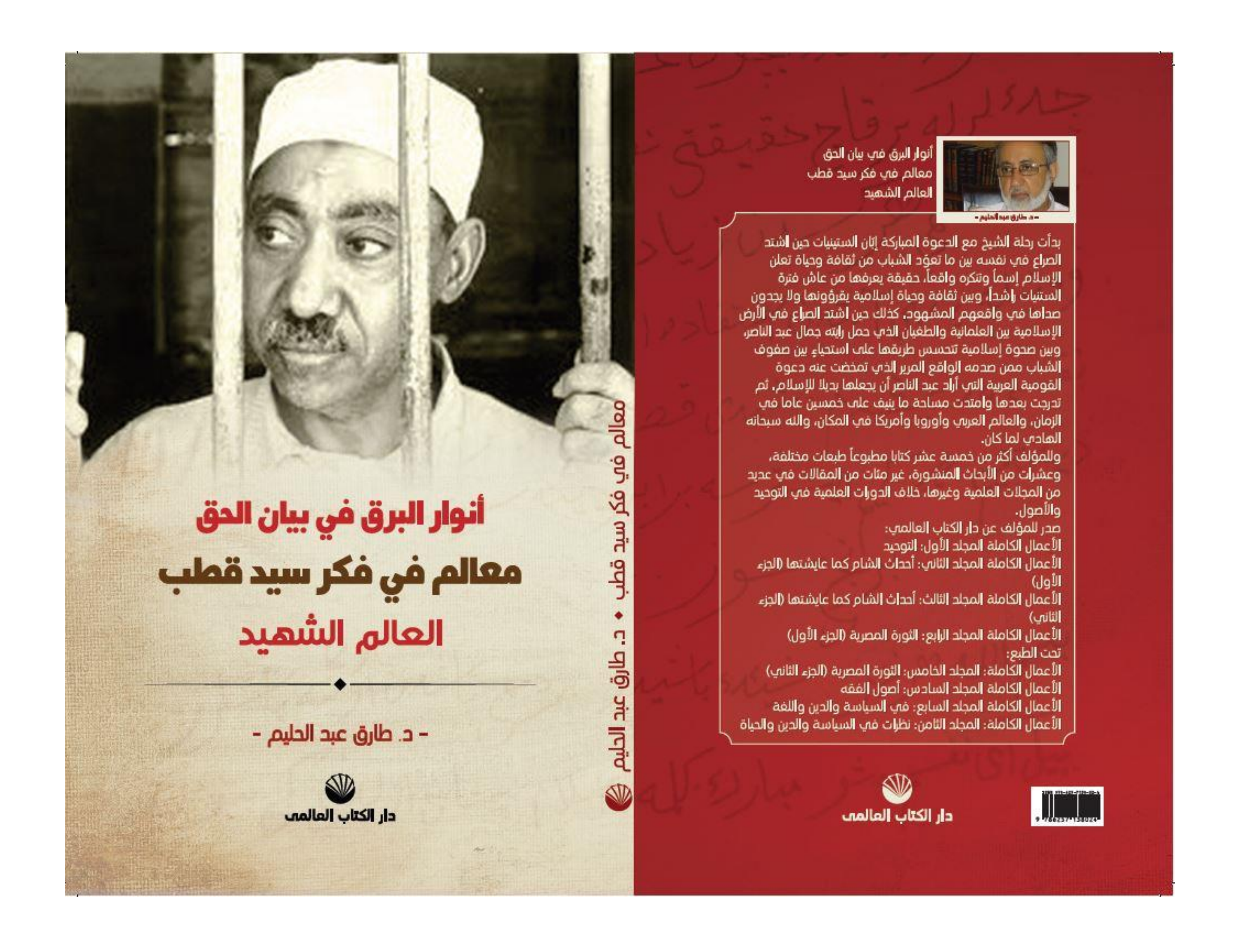

أنوار البرق في بيان الحق
معالم في فكر سيد قطب
العالم الشهيد
- د. طارق عبد الحليم -
دار الكتاب العالمى
معالم في فكر سيد قطب ◆ د. طارق عبد الحليم
أنوار البرق في بيان الحق
معالم في فكر سيد قطب
العالم الشهيد
بدأت رحلة الشيخ مع الدعوة المباركة إبان الستينيات حين اشتد الصراع في نفسه بين ما تعوّد الشباب من ثقافة وحياة تعلن الإسلام إسماً وتنكره واقعاً، حقيقة يعرفها من عاش فترة الستينيات راشداً، وبين ثقافة وحياة إسلامية يقرؤونها ولا يجدون صداها في واقعهم المشهود. كذلك حين اشتد الصراع في الأرض الإسلامية بين العلمانية والطغيان الذي حمل رايته جمال عبد الناصر، وبين صحوة إسلامية تتحسس طريقها على استحياء بين صفوف الشباب ممن صدمه الواقع المرير الذي تمخضت عنه دعوة القومية العربية التي أراد عبد الناصر أن يجعلها بديلا للإسلام. ثم تدرجت بعدها وامتدت مساحة ما ينيف على خمسين عاما في الزمان، والعالم العربي وأوروبا وأمريكا في المكان، والله سبحانه الهادي لما كان.
وللمؤلف أكثر من خمسة عشر كتابا مطبوعاً طبعات مختلفة، وعشرات من الأبحاث المنشورة، غير مئات من المقالات في عديد من المجلات العلمية وغيرها، خلاف الدورات العلمية في التوحيد والأصول.
صدر للمؤلف عن دار الكتاب العالمي:
الأعمال الكاملة المجلد الأول: التوحيد
الأعمال الكاملة المجلد الثاني: أحداث الشام كما عايشتها (الجزء الأول)
الأعمال الكاملة المجلد الثالث: أحداث الشام كما عايشتها (الجزء الثاني)
الأعمال الكاملة المجلد الرابع: الثورة المصرية (الجزء الأول)
تحت الطبع:
الأعمال الكاملة: المجلد الخامس: الثورة المصرية (الجزء الثاني)
الأعمال الكاملة المجلد السادس: أصول الفقه
الأعمال الكاملة المجلد السابع: في السياسة والدين واللغة
الأعمال الكاملة: المجلد الثامن: نظرات في السياسة والدين والحياة
دار الكتاب العالمى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أنوار البرق في بيان الحق

معالم في فكر سيد قطب

العالم الشهيد

طبعة مصححة صفر 1444 - أغسطس 2022

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هاديَ له، ونصلي ونسلم أتم الصلاة وأزكى السلام على الحبيب المصطفي ﷺ إمام هذه الأمة، ومصباح نور هداها، ورافع لواء توحيدها، الذي افترقت به عن الأمم التائهة والديانات الباطلة.

لعل من أصعب الأمور على كاتبٍ ما، أن يكتب، ولو كلمات قليلة، عن شخصية عملاق من عمالقة الفكر، ورائد من رواد أدب العرب، وعلم من أعلام الدعوة الإسلامية، دون أن يتردد في كيف يبدأ، وإلى أين سينتهي!

وسيد قطب، رحمه الله تعالى، مثال على تلك الشخصية، كأروع ما يكون المثال.

فسيد، رحمه الله تعالى، كان فريداً في كلّ مجال تلك المجالات، حتى استأثر الله به ليلقاه شهيداً بإذن الله، فكان ذلك معيار التفرّد الحقّ، ومقياس الحق والصدق، في كلّ قوله وعمله.

المُحزن في الأمر، هو أن يكتب كاتب ما، عن هذا المتفرّد الفذّ، الأديب المفكر، الداعية المفسّر، الشهيد بإذن الله، ليدفع عنه غوائل الظلم، التي نالته، حتى بعد علوه وارتقائه لجوار ربّه، لا بأذى جسديّ، فقد تكفّل بذلك النظام الناصريّ الطاغوتي. لكن بالقدح والسب أحياناً، والتكفير والتبديع أحياناً أخرى، أو إنكار ما حمله المتفرّد الفذّ من علمٍ البتّة، حتى في المجال الذي برع فيه بلا مقارنٍ، علم التفسير.

وكان لهم في ذلك، أقصد الحاقدين و القادحين والمستهينين و الحاسدين، بل وبعض المادحين المدافعين، طرقاً لهدم هذا الجبل الصامد الصابر، سنبينها للقارئ، حتى يعلم ما لقيه هذا المتفرّد الفذّ، من ظلمٍ على يد نظام ملحدٍ مجرمٍ أولاً، ثم على يد من هم أقل شأناً وأحط قدراً من أن يصلوا إلى ما هداه الله إليه، فانقدحت، بهدى الله، شرارة أفكاره، واستنارت بصيرته، وأخرج عملين من أجلّ ما دونته يد مسلمٍ في عصرنا الحاضر، المعالم والظلال، وبعدما تبرّأ مما كتب قبلهما، لدرء ما وقع فيه من خلل يطرأ على كلّ البشر، وحتى يتمحّض له هذان العملان، أمام الله وبين يديّ الناس.

لم يشفع للرجل أنْ يتبرأ مما أخطأ فيه، وأن يصرّح بذلك وأن لا يأذن بطبع تلك الأعمال مثل التصوير الفني في القرآن والعدالة الاجتماعية في الإسلام. بل راح الحاقدون والقادحون

والمستهينون والحاسدون يضربون على أوتار ما زلّ فيه قلمه قبل أن يفتح الله عليه، بما رأيناه من نتاجٍ يعزُ على غيره أن يُخرج للناس مثله، خاصة في ظلّ السجن والتعذيب، الذي عانى من قهرهما ذلك الجسد الضعيف الصغير، صاحب النفس الهائلة الشامخة، عشرة أعوام حتى أعدمه المجرم الملحد عبد الناصر.

ثم راحوا ينقّبون عن كلمات هنا وهناك، في الظلال وفي المعالم، ليجرّوه إلى وحل فكرهم وحضيض مستواهم، فيكرهه الناس، وينفر منه الشباب. لكن، واعجبا، انظر إرادة ربك للحق أن يعلو، وللنور أن ينتشر! لم يكد الشهيد يرتقي حتى انتشرت كتبه انتشار شذى العطر في مهب ريح. وقد عاصرتُ تلك الأيام من عام 1966، ثم كتب الله لي، في مقتبل الشباب، أن أكون ممن نسخ بعض أجزاء الظلال بخط اليد، بعدما منع النظام الطاغوتي طبعها ونشرها، بل جرّم احترازها، واعتقل من حملها.

ولست هنا، في هذا الكتاب، أو في هذه التقدمة براغبٍ في الكتابة عن حياة سيد، أو تطوره الفكريّ، ولا أنا في صدد الردّ على الشبهات السائدة الباردة التي رموه بها، مثل قوله بوحدة الوجود أو غير ذلك، تفصيلاً، فقد تكفّل بذلك عدد من الإخوة المشايخ العلماء والأبناء، في عدة كتب، أحسن فيها البعض، من أفضلها الشيخ د. صلاح الخالديّ في كتابه "سيد قطب بين الميلاد والاستشهاد"، والذي أوفى فيه الشهيد حقّه. ولا شك أن أفضل من نافح عن الشيخ سيد رحمه الله، الشيخ العلامة بكر أبو زيد في وريقاته التي أرسلها للمدخليّ، ناعيا عليه ما كتب في شأن الشهيد، وخروجه عن المنهج العلمي والأدب والفهم عن الله والكاتب. ومنهم الشيخ المجاهد عبد الله عزام رحمه الله تعالى في دفعه عن الشيخ سيد تهمة الحلول والاتحاد الباطلة المزعومة. ومنهم ما رأيته مؤخرا للدكتور مشاري المطرفي، الذي أراد الإحسان، فخانه البيان، ووقع في شراك شبهات المسيئين، فجاء كتابه ذمّاً في ثياب مدح.

أما من أساءوا فهم كثيرون، والعجب أنهم من المعدودين في عداد العلماء المشهورين. فعلى رأس الشانئين ربيع المدخليّ أوفاه الله جزاء افترائه وكذبه، ومنهم الشيخ القرضاوي، الذي ساءه مطلع الشيخ سيد، وذيع صيته وانتشار كتبه، ولم يكن هو يومها شيئاً مذكوراً، ليس له من المؤلفات إلا القليل العدد والشأن، على رأسها كتاب الحلال والحرام في الإسلام، الذي انتقده جلّ علماء السلفية حين صدوره عام 1960، وظهر فيه منهجه في التعامل مع الشرع، حتى أسماه البعض، تفكّها "الحلال والحلال في الإسلام"! ثم تلقفته الجزيرة في برنامجها الشريعة

والحياة، ثم تلقفته أيدي الحكام، الذين رخّص لهم، بمذهبه الإرجائي في موضع التحاكم للشرع، تغيير الحلال والحرام، ومن ثمّ شرعية أنظمتهم وولاية أمرهم.

أما جلّ العلماء ممن عُرفت أسماؤهم وارتفع قدرهم عن كثير من الناس، فقد تحدثوا في شأن الشيخ سيد رحمه الله، إمّا عن جهل بكتاباته، أو باصطناع الجهل بها تقليلاً لشأنه! فحاوروا وداوروا، وقدحوا في صورة مدح، وذموا في صورة نفح، واعتذروا بما لا يُعتذر به إلا مِنْ جاهل بكتب الرجل أو مغرض بشأنه.

ومن أعظم الفريات التي تداولتها الألسنة عن الشيخ سيد، ممن أراد بها الإساءة إليه، أو من أراد بها الاعتذار عنه، أنه "أديب" وليس "عالما"! فهو يتوسع في عباراته بما يلقى في ظلالها كثيرا من الأخطاء العقدية، منها وحدة الوجود، أو الأشعرية[1]، أو الصوفية، أو ما شئت من البلاءات، ليس لسبب إلا لأنه صاحب قلمٍ بارع في اللغة، نقّادة سبّار لأغوارها! فهو لا يكتب كما يكتب من يسمون أنفسهم أصحاب الحديث، أو ممن يكتب بأسلوب الفقهاء المعروف فيما تقدّم من زمن. فأنكروا عليه أيّ صلة بالعلم! ومنهم الألباني وابن باز وابن عثيمين، غفر الله لهم. ولا ندري والله عن رجل كتب تفسيراً للقرآن كالظلال، يُحرم من وصفه بالعلم حتى في تخصصه الذي برع فيه وهو "التفسير" فليس هو حتى بعالمٍ في التفسير!. ولو دوّن أحدٌ عُشْر ما كتب في الظلال، لسارت بذكره الركبان في دوائر العلم! ولو كان غير الشيخ الألباني لغضضنا الطرف، لكن الشيخ الألباني نفسه مرميّ بالإرجاء كما هومعروف في تأخيره مرتبة العمل عن الإيمان.

والكذبة الأخرى التي يروجها المادح والحاسد، هي أنه "هناك من غلوا فيه مدحا وهناك من غلوا فيه قدحا"! سبحان الله! أين الغلو فيما كتب فيه من أعطي سيداً حقّه مثل العلامة بكر أبو زيد أو الشيخ الخالديّ أو غيرهم مثل العبد الضعيف؟ أقلنا بعصمته من الخطأ؟ أبداً، بل قلنا إن الله سبحانه يقبل التوبة عن عباده، والرجل قد أنكر ما كتب قبلاً، فماذا تريدون منه أن يفعل؟ كيف يتخلص من الخطيئة الكبرى إن لم يشفع لديه عندكم رجوعه عنها تصريحاً؟ أليس هذا أفضل من الألباني، رغم محبتي وإجلالي له، الذي أصرّ على عقيدته الإرجائية، لم يتراجع عنها؟ ثم يأتيك الدكتور المطرفي فينقل عن ابن عثيمين قوله الظالم المُظْلم عن سيد والألباني أنه "رغم أن سيد عالما لكن لا مقارنة بينهما فهو فرق بين السماء والأرض!!" هذه عقلية ابن

[1] أخذ سيد بما يظهر أنه تأويل لبعض الصفات لا يلزم منه أن يكون "أشعريا". فإن الأشعرية مذهب كبير في الصفات وفي الإيمان وغير ذلك، فلعله يُقال وافق الأشعرية في هذه النقطة أو تلك، لكن لا يُقال أشعرياً.

عثيمين في تعريف العالم! رواية الحديث، ليس إلا.. علماء نجد! وهذا قول أفضل من تحدث عن سيد!

وقد أثار عدد من الأبناء نقاطا جديرة بأن أذكرها لصدقها وحسن نظرها. فمما جاءني:

قال لي ابن حبيب "قالوا "كلّ يؤخذ من كلامه ويُترك .. وهذا صحيح، يجري في حق هؤلاء الذين تحدّثوا عنه بسوء، فكلامهم فيه متروك" اهـ

وكتب ابن حبيب آخر "أيُسأل من دخل في طاعة الطاغوت عن من كَفَرَ بالطاغوت وكفّره؟!

أيُسألُ من لا يُحسن فهم قضية الحاكمية عن من بذل حياته من أجلها؟!

أيُسألُ من قرّبه الطّاغوت عمّن قتلَه الطاغوت؟!

وأكثر ما في الكتاب من أجوبة؛ تقدح في أستاذنا سيّد -رحمه الله- فإنصافهم مصحوب بالذم والتنقّص.

لا بأس.. فمنزلة الأستاذ سيّد يعرفها كلُّ مُجاهدٍ حُرّ أبيّ، وكلُّ ساعٍ لإقامة دين الله في الأرض، فلا يضرّه جحد الجاحدين!" اهـ

وليس هنا موضع نقدٍ للألباني ولا لغيره، بل هو مثالٌ على شدة الإفتراء على الشيخ سيد، الذي "ليس بعالم" عندهم! وكتابه في التفسير "الظلال" أشهر ما كُتب في التفسير في عصرنا، وإن اختلفت طريقته عن تفسير الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" أو تفسير الأمين الشنقيطي "أضواء البيان" رحمهما الله، والذي سار فيه الأخير على نهج تفسير القرآن بالقرآن، بعلمٍ وتحقيق دون جدال. لكن كما يُقال "لكلّ شيخ طريقة".

وهذه الهجمة التي بدأت على الشيخ سيد منذ اختاره الله ليكون دليل هدى لأجيال مسلمة، ولا زالت هجمة مسعورة مستمرة، ليست بمستغربة، خاصة في أيامنا هذه، والتي نرى فيها تعاسة الهجوم على دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، إمام دعوة التوحيد في عصره، ورائده فيما جاء من بعده. فأنت ترى، يا رعاك الله، الهجوم على أعلام التوحيد، بينما ترى من سالموا الطاغوت، وأوصوا بموالاة الحكام وطاعتهم، مثلما قال الحويني إبّان ثورة 25 يناير! ومثل رواد الديموقراطية كالددو والريسوني والقرضاوي، يتمتعون بالحياة على أفضل صورة، كأنهم ملوك متوّجة! فشتان بين الثرى والثريا، حقاً وصدقاً.

إن أولئك الذين هاجموا الشيخ سيد هذا الهجوم المروّع، وحاولوا إسقاطه وإلصاق التهم به، تخويفا للشباب منه ومن فكره، الذي هو التوحيد الخالص، بلا إرجاء القرضاوي والألباني، ولا ديموقراطية الريسوني والددو، ولا خارجية الزوابريّ والبغدادي، أولئك هم من يجب أن يهاجمهم المخلصون (رمتني بدائها وانسلّت**!**)، حيث إنهم هم أيدي الطغاة التي تخطّ صكوك الغفران للحكام بذريعة **"**عدم تكفير المسلمين تارة**"**، كما فعل القرضاوي والألباني ورَبعِهما، فكانت لهما، وبالأخص أولهما، الحظوة عند كثيرٍ من الحكام والنظم، أو بذريعة حرمة الخروج على وليّ الأمر، كما فعل أمين الجامي وربيع المدخلي، ثم ياسر برهامي، الذين وصل بهم الحال الى نصرة السيسي ثم القتال في صفوف مرتد ليبيا حفتر**!** أولئك هم من يجب أن يقفوا موقف الدفاع عن أنفسهم أمام الخلق، قبل أن يلاقوا الخالق، معرضين عن صريح آياته ومُحكمها، استكباراً وحسداً، وضعفاً وزراية بالنفس.

وقد دونت على مرّ العقود الماضية بعض الأبحاث المتراوحة بين الطول والقصر، بيّنت فيها بعض جوانب فكر الشيخ الشهيد بإذن الله، ونافحت عنه ضد من أساء إليه، وبينت عوار مذهبهم وضعف حيلتهم.

وقد رأيت أن أجمع هذه الوريقات، وأضمنها في كتيب صغير، يكون فيه ما يعين على إعطاء الشيخ الشهيد بعض حقه عليّ بصفة شخصية، وحق إحقاق الحق على الناس، كلّ الناس، برفع بعض المظالم والشبهات عنه، رحمه الله وتقبله في الشهداء.

وإن كنت قد شددت في حديثي عن بعض الشخصيات والأسماء التي ظلمت وافترت، فهو من باب الغضب للحق، وكما كتبت في مناسبة أخرى:

إنْ تدفعِ الظُّلْمَ بالحسنى أتَحْتَ له *** كفّاً تُصيب، مع كفيّه، مظلوما

والله الموفِق وعليه التكلان

د طارق عبد الحليم

4 ذو العقدة 1441 الموافق 25 يونية 2020

تورونتو - كندا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نظرات في فكـــر سيد قطب

إلى هؤلاء النفر من أصحاب الدعوة، ممن انتسب إلى السّلفية أو الإخوانية أو غيرها من الدعوات والحركات، الذين خَلطوا الأوراق وزيفوا المعاني فجعلوا الحق باطلا أو أشبه بالباطل والباطل حقا أو أشبه بالحق، فأضرّوا وما نفعوا، إلى أولئك أتوجه بهذه السطور.

اختلفت الآراء حول سيد قطب، الكاتب الشّهيد الذى شكّل جانبا هَاما من الفِكر الإسلامي المعاصر، وانعكس فكره على كافة الاتجاهات الحركية منذ أُعدم بعد محاكمة صورية عام 1966. وقد ناصر سيداً العديدُ من العلماء والمفكرين الإسلاميين، كما اختلف معه بعض منتسبي الدعوة كذلك. وسبب هذا الاختلاف أو الاتفاق يرجع فيما نرى إلى سيد قطب وما كتب من ناحية، وإلى الشّخصية الذي تُقيّم سيداً وتختلف معه أو تتفق من ناحية أخرى. ويشهد الله أننا لا نوافق سيداً في كل ما ذهب اليه، خاصة قبل كتابة الظلال، وهو ما تبرأ منه، بل نرى أن له زلات هي من طبيعة البشر الخطّاء، ولكن ما للرجل – يشهد الله – هو أكبر فضلا وأعمق أثراً في الدعوة الإسلامية مما عليه، لا ينكر هذا إلا مكابر لا يعرف الرجل، ولا يعرف الإسلام على حد سواء.

ولست أقصد هنا إلى تتبع إحصائي لمن خَالف سيداً أو من وافقه، فإن هذا أمر قليل النفع أو عديمه. ولكن القصد هو النظر في طبيعة الموافقة ممن وافق وطبيعة المخالفة ممن خالف.

وحتى يكون الحديث موضوعياً، فسنحاول أن نلقي الضوء على ذلك الجانب من فكر سيد رحمة الله عليه ، الذي تضاربت حوله الآراء وتشعبت فيه الأقوال ، خاصة التهمة التي يشيعها عنه مخالفوه والتي تمثلت في قول من قال أن سيدا كان يكفّر أعيان الناس ، بل هو رائد "التكفيريين" في هذا العصر !

يمكن أن ننظر إلى فكر سيد رحمه الله في ضوء هذه الأقسام الثلاثة :

أولها : فكر عقدي يرجع إلى فهم طبيعة التوحيد وحدوده وضوابطه .
وثانيها : فكر تقييميّ يعود إلى تمييز الواقع وتحديد معالمه على ضوء ذلك الفهم .
وثالثها : فكر حركيّ يبنى على ذلك التقييم ، ويتناول ما يراه مناسبا لتأدية الحق العقديّ .

وسنقوم في الفقرات التالية بالحديث عن كل قسم من هذه الأقسام كما تناولها سيد، ونعضد ذلك بنصوص مما كتب [2] ، ثم نعرّج على ما يوافق قوله – أو يخالفه – من مذاهب أهل السنة في العقيدة من خلال أقوال علماء السنة وقواعد الأصول والتفسير ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

وسيتبين من خلال ذلك أن ما رماه به بعض منتسبي الدعوة من تكفير الناس عامة إن هو إلا خلط في الفهم من البعض وإغراض أو حسد لمكانة الرجل من البعض الآخر .

البعد العقدي في فكر سيد قطب :

قضية التوحيد وضوابطه وأبعاده هي القضية التي شَغلت الحيّز الأكبر في فكر سيد رحمة الله عليه. والتوحيد كما قرر أهل السنة والجماعة هو توحيدان: توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وبه يثبت ما لله من أسماء عليّة وصفات جليلة، نثبتها كما جاءت بلا كيف.

وسنتجاوز في هذا المقال عمّا نسب لسيد من تجاوزات في هذا الأمر – أمر الأسماء والصفات – لا لقلّة شأنه – حاشا لله من ذلك – ولكن لأننا قصدنا إلى مناقشة أمر محدد في فكر سيد وهو قضية التكفير خاصة . وقد نسب البعض إلى سيد القول بتأويل الاستواء بالاستعلاء [3]، كما نسبوا له القول بإنكار صفة الكلام وصفة اليد وأنه قال بأن القرآن مخلوق . بل تعدى الأمر بالبعض ممن هو غالٍ في عدائه لسيد أن نسب إليه القول بوحدة الوجود! [4] وهو أمر ناقشه العديد من العلماء وبينوا زيفه، وأن جلّه مما هو من قبيل تصاريف الكلام الأدبي، حمّال الأوجه.

---

[2] منهجنا هنا هو نقل ما يدل على فكر الشهيد ليس إلا ، ولا نقصد إلى حشد كل ما كتب في معالجة فكرة بعينها للاختصار وعدم جدوى التكرار إلا إن كان هناك تفصيلا لمجمل في نص أو تقييدا لمطلق أو بيانا وإحكاما لمتشابه من أقواله .

[3] وليس بالاستيلاء كما في قول المعتزلة، وهو أقرب إلى قول بن حزم في ذلك الأمر . راجع "الإمام ابن حزم" لمحمد أبو زهرة.

[4] كما ذكر المدعو ربيع المدخلي ، ومعروف ضلوع المذكور في الإرجاء فلا غرابة أن يلقي بالتهم جزافا على سيد رحمة الله عليه ، وقد تكفل بالرد عليه الشيخ الجليل بكر أبو زيد فيما افتراه على سيد كذبا وعدواناً وترويجا لبدعة الإرجاء، وتذللا وتقربا من السلطان ، وكذلك الشيخ عبد الله عزام في رده على تهمة الحلول والإتحاد

أما توحيد الألوهية أو توحيد العبادة الذي هو مقتضى كلمة "لا إله إلا الله"، فهو ما دافع عنه سيد وبيّنه أحسن بيان. وسنعرض في الفقرات القادمة ما يلقي الضوء على فكر سيد في هذا الأمر، مما هو من قبيل المُحكمات التي لا يجب أن ينتطح فيها عنزان أو يختلف عليها عاقلان، وما يعضد ذلك، أو يخالفه، من أقوال أهل السنة، ونترك ما هو من قبيل المتشابه من كلامه مما يجب أن يفهم في ضوء المحكم الذي لا يحتمل تأويلاً ولا تصريفاً.

وقضية الألوهية مرتبطة بقضية العبادة والرجوع إلى حكم الله سبحانه في حياة الناس. قال تعالى في سورة يوسف : "إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيّم" فبين في هذه الآية وحدها كل ما يتضمنه مقتضى العبادة، إذ إن فيها أن الحكم بما أنزل الله هو العبادة، وأن ذلك هو الدين بمعناه الشامل العام أي نظام الحياة المتكامل المبني على شريعة الله وعقيدة التوحيد.

ومما يجب أن يلاحظ في هذا الصّدد أن سيداً حين يتحدث عن قضية الألوهية، فإنه لا يناقشها من جانبها النظري، ولا يؤصّلها من الناحية الأكاديمية البحتة ، بل ولا يناقش معارضيها أو مخالفيها لا في جزء ولا في كلّ. بل هو يربطها ربطا مباشرا بأثرها في الحياة، وبما يجب أن تُنشأ من حسّ ضميريّ وحسّ ماديّ في حياة المسلم، ويبين أنّ هذا المعنى هو الذي تقوم به الحياة كما أرادها الله سبحانه للناس في الأرض .

يقول سيد في معرض الحديث عن لا إله إلا الله: "وليس الطريق أن يتحرر الناس في هذه الأرض من طاغوت روماني أو فارسي ، إلى طاغوت عربي . فالطاغوت كله طاغوت ! إن النـاس عبيد لله وحده ، ولا يكونون عبيداً لله وحده إلا أن ترتفع راية : "لا إله إلا الله" - لا إله إلا الله كما يدركهـا العربي العارف بمدلولات لغته ، : لا حاكمية إلا الله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله ، ولأن " الجنسية " التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله . وهذا هو الطريق . ."[5]

ويقول ، بعد أن يقرر أن لا إله إلا الله كلمة يجب أن يدركها الناس بما تحمل من معان وأن يعيشوا بها ولها " فلمّا تقررت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي ترتكن إليها

[5] المعالم 28 طبعة دار الشروق 1987

هذه العقيدة . . لَمَّا عرف الناس ربهم وعبدوه وحده . . لَمَّا تحرر الناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء . . لَمَّا تقررت في القلوب " لا إله إلا الله " . . صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون . . تطهرت الأرض من " الرومان والفرس " . . لا ليتقرر فيها سلطان " العرب " . ولكن ليتقرر فيها سلطان " الله " . . لقد تطهرت من سلطان " الطاغوت " كله . . رومانياً ، وفارسياً ، وعربياً ، على السواء"[6].

ويقرر كذلك أن هذا هو الإسلام ، ولا إسلام سواه . يقول في تفسير سورة المائدة من الظلال : " ولم يكن بد أن يكون "دين الله" هو الحكم بما أنزل الله دون سواه . فهذا هو مظهر سلطان الله . مظهر حاكمية الله . مظهر أن لا إله إلا الله . وهذه الحتمية: حتمية هذا التلازم بين "دين الله" و"الحكم بما أنزل الله" لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع . فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية. وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي . إنما السبب الأول والرئيسي . والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله , ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه . وهذا هو "الإسلام" بمعناه اللغوي :"الاستسلام" وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان . . الإسلام لله . . والتجرد عن ادعاء الألوهية معه ، وادعاء أخص خصائص الألوهية ، وهي السلطان والحاكمية ، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون "[7] .

ثم يقرر كذلك أنّ مدلولات هذه الكلمة يجب أن تكون في ضمائر القائمين عليها والمنتسبين لها بقدر ما تكون نظاما ودولة ومجتمعا يعيشون فيه ويديرون بها شؤون حياتهم اليومية . يقول رحمه الله : " ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ، كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم ، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك . وكانوا قد وُعِدُوا على إقامة هذا الدين وعداً واحداً ، لا يدخل فيه الغلب والسلطان . . ولا حتى لهذا الدين على أيديهم . . وعداً واحداً لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا . . وعداً واحداً هو الجنة . هذا كل وعدوه على الجهاد المضني ، والابتلاء الشاق ، والمضي في الدعوة ، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان في كل زمان وفي كل مكان ، وهو : " لا إله إلا الله " ! " [8].

---

[6] السابق 29
[7] الظلال مقدمة تفسير سورة المائدة، ج2 ص 828 طبعة دار الشروق 1979
[8] السابق مقدمة سورة الأنعام ج3 ص

من هذه النصوص – التي تغطي – على قلتها - جلّ مساحة ما تحدث عنه سيد في أمر العقيدة، نرى أنه قرر :

1. أنّ كلمة "لا إله إلا الله" لها حقيقة ومضمون كان العرب يدركونه حين صدع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .
2. أن معناها الخروج من طغيان أيّ طاغية من بشر أو شيطان أو هيئة أو حكومة إلى مظلة الخضوع لله والاستسلام له وحده لا شريك له .
3. أن هناك تلازماً وحتمية بين فهم هذه القضية وبين إقامتها في حياة الناس، وأن الأمر ليس أمر اختيار، بل هو أمر اضطرار، لمن أراد القبول بهذه الكلمة والدخول تحت مضمونها .
4. وأن هؤلاء الذين يقبلونها في حياتهم ، إنما يقيمونها في ضمائرهم ووجدانهم كما هي قائمة في حياتهم وتعاملاتهم ، حذرا من النفاق وحرصاً على صحة الخُلُق المبني على العقيدة .

ترى هل جانب سيد الصواب في هذا التقرير؟ فلنرجع إلى أئمة الإسلام من أهل السنة والجماعة وإلى قواعد الأصول ومقررات التفسير نستشف منها الحقيقة في ذلك الأمر .

يقول ابن القيّم في حديثه عن وفد نجران ، شارحا حقيقة الإسلام التي هي من وراء النطق بالشهادتين : " ومَن تأمَّل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، وأنه صادق ، فلم تدخلهم هذه الشهادة فى الإسلام ، علم أنَّ الإسلامَ أمرٌ وراء ذلك ، وأنه ليس هو المعرفة فقط ، ولا المعرفة والإقرار فقط ، بل المعرفةُ والإقرارُ ، والانقيادُ ، والتزامُ طاعته ودينه ظاهراً وباطناً . "[9].

إذن فحقيقة الشهادتين هي الخضوع والطاعة والانقياد ظاهرا وباطنا ، ليست هي النطق المجرد ، وليست هي الإقرار القلبي وحده .

[9] زاد المعاد ج3 ص

وقد يقول قائل ، نعم ، ولكن هذا معنى الإسلام الذي يشمل مجال العمل والطاعات كذلك ، فنقول : هذا صحيح من جهة وغير صحيح من جهة أخرى ، فإن أعمال الطاعات[10] ليست من لُبّ التوحيد بل هي تدخل فيه من باب الوجوب والكمال فتزيد الإيمان أو تنقصه، ولكن ما يناقشه ابن القيّم هنا هو أمر محدد وهو دخول الإنسان إلى الإسلام واعتباره مسلماً ، ليس ما يتعلق بأفعاله في حياته بعامة. وهو ما يستلزم أن يكون إقراره والتزام طاعته خاليا مما يشوب حقيقته كارتكاب عمل من الأعمال التي بيّن الله سبحانه كفر فاعلها ، مثل هؤلاء الذين استهزؤا بالرسول صلوات الله عليه والصحابة على سبيل الدعابة والمزح ، فبيّن الله في محكم تنزيله أن هذا اعتذار غير مقبول ، وأن هناك من الأعمال ما تدل على الكفر بظاهرها رغم قول فاعليها بخلاف ذلك ، وذلك بشهادة الله سبحانه " لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم"[11]. ومثل هذا كثير في أقوال الأئمة قديما وحديثا ، وإليك طائفة منه ، تقرر كما قرر سيداً أن الحكم بالشريعة هو مدار هذا الدين :

يقول بن تيمية : " فإن الحاكم إذا كان ديّناً لكنه حكم بغير علم كان من أهل النار، وإن كان عالماً لكنه حكم بخلاف الحق الذي يعلمه كان من أهل النار ، وإذا حكم بلا عدل ولا علم أولى أن يكون من أهل النار، وهذا إذا حكم في قضية لشخص ، وأما إذا حكم حكماً عاماً في دين المسلمين فجعل الحق باطلاً والباطل حقاً والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ، ونهى عما أمر الله به ورسوله ، وأمر بما نهى عنه ورسوله فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين ، وإله المرسلين مالك يوم الدين الذي له الحمد في الأولى والآخرة : {وله الحكم وإليه ترجعون} . . {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً} "[12].

وقال أيضاً : " ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر فمن استحل [13] أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل في دينها ما يراه أكابرهم ، بل كثير من

[10] على خلافٍ في الفروض الأربعة بين العلماء، وضحته في كتاب "حقيقة الإيمان"، راجع الأعمال الكاملة ج1 ص 96 هامش، طبعة دار الكتاب العالمي

[11] التوبة 66

[12] مجموع الفتاوى ج 35 ص 226

[13] استحل هنا واقعة على إجراء الحكم أي من رأى أنه لا غبار من أن يحكم بغير الشريعة لا أنه استحل ما حرّم الله من الأحكام ذاته ، ويراجع المزيد من هذا في تعقيب د . محمد أبو رحيم في كتابه "حقيقة الخلاف بين السلفية الشرعية وأدعيائها في مسائل الإيمان" ص 71 وبعدها

المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله كسواليف البادية (أي عادات من سلفهم) والأمراء المطاعين ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر ، فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون . فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار"[14].

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) "ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خيرٍ الناهي عن كل شر ، وعدل عما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها الكثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكّم سواه في قليل أو كثير " كما أن بن كثير قد ذكر نفس الكلام في تاريخه عن موضوع الحكم بالياسق وأمثاله قال : " فمن ترك شرع الله المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة – كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين" [15].

ويعلّق أحمد شاكر في "عمدة التفسير : "أقول : أفيجوز – مع هذا – في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة ، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون ، لا يبالى واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها ؟

إن المسلمين لم يُبْلَوَا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم – إلا في ذلك العهد ، عهد التتار ، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له ، بل غلب الإسلام التتار ، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته ، وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم ،

---

[14] منهاج السنّة ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ج5 ص 130 ، مؤسسة قرطبة
[15] تفسير ابن كثير سورة المائدة آية 50، ج3 ص 131

وبأن هذا الحكم السيئ الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك ، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمة الإسلامية المحكومة ، ولم يتعلموه ولم يعلموه لأبنائهم ، فما أسرع ما زال أثره .

أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ بن كثير – في القرن الثامن – لذاك القانون الوضعي الذي صنعه عدو الإسلام جنكيز خان ، ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر ، في القرن الرابع عشر ، إلا في فرق واحد ، أشرنا اليه آنفا : أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام ، أتى عليها الزمن سريعا فاندمجت في الأمة الإسلامية وزال أثر ما صنعت .

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا وأشد ظلما وظلاما منهم . لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تندمج في هذ القوانين المخالفة للشريعة والتي هي أشبه شيء بذاك "الياسق" الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر ، هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام ، ثم يتعلمها أبناء المسلمين ويفخرون بذلك آباء وأبناء ، ثم يجلعون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا الياسق العصري ، ويحقرون من خالفهم في ذلك ، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم "رجعيا" و"جامدا" [16] إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة .

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي ، يريدون تحويله إلى "ياسقهم الجديد" وبالهوينى واللين تارة وبالمكر والخديعة تارة ، وبما ملكت ايديهم من السلطات تارات ، يصرحون – ولا يستحيون – بأنهم يعملون على فصل الدين عن الدولة .

أفيجوز إذن لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد ، أعنى التشريع الجديد **!** أو يجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به عالما كان الأب أو جاهلا ؟ **!** . . .

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس ، هي كفر بواح ، لا خفاء فيه ولا مداورة ، ولا عذر لأحد ممن ينتسبون إلى الإسلام – كائنا من كان – في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها ، فليحذر امرئ لنفسه "وكل امرئ حسيب نفسه" .

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين ، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه ، غير متوانين ولا مقصرين . سيقول عني "عبيد هذا الياسق الجديد" وناصروه أني جامد وأني رجعيّ وما إلى ذلك من

---

[16] وأضيف هنا ما زاده منافقو هذا العصر "إرهابي" "خارجيّ" "أصولي" "وهابيّ" وما إلى ذلك مما يموهون به على بسطاء المسلمين يرهبونهم من دين الله ويبعدونهم عن دعاته .

الأقاويل ، ألا فليقولوا ما شاءوا ، فما عبأت يوما بما يقال عني ولكني أقول ما يجب أن أقول" [17].

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : "واعتبار شئ من القوانين للحكم بها ولو في أقل القليل لا شك أنه عدم رضا بحكم الله ورسوله، ونسبة حكم الله ورسوله إلى النقص وعدم القيام بالكفاية في حلّ النزاع وإيصال الحقوق إلى أربابها وحكم القوانين إلى الكمال وكفاية الناس في حلّ مشاكلهم، واعتقاد هذا كفرٌ ناقل عن الملّة، والأمر كبير مهم وليس من الأمور الاجتهادية ... وتحكيم الشرع وحده دون كلّ ما سواه شقيق عبادة الله وحده دون سواه" [18].

وقال كذلك "وأما الذي قيل فيه: إنه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاده أنه عاص وأن حكم الله هو الحق، فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها. أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل. فهذا كفر ناقل عن الملة"[19]

يعلق الشيخ الفوزان بقوله : " ففرق رحمه الله بين الحكم الجزئي الذي لا يتكرر وبين الحكم العام الذي هو المرجع في جميع الأحكام أو غالبها وقرر أن هذا الكفر ناقل عن الملة مطلقاً وذلك لأن من نحى الشريعة الإسلامية وجعل القانون الوضعي بديلاً منها فهذا دليل على أنه يرى القانون أحسن وأصلح من الشريعة وهذا لا شك فيه أنه كَفَر كفراً أكبر يخرج من الملة ويناقض التوحيد" [20]

ثم نقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يبيّن أن العرب كانت تدرك ما وراء "لا إله إلا الله" من معانٍ ولوازم . جاء في حديث المثنى بن حارثة :"قال إن هذا الأمر الذي تدعو إليه مما تكرهه الملوك"[21]، ولا شك أن كراهة الملوك والحكام لهذه الكلمة سببها معروف . كما أن حرب العرب والعجم لها أمر مشاهد لا يحتاج إلى دليل لمن ألقى السمع وهو شهيد.

---

[17] "عمدة التفاسير" أحمد شاكر ، ج1 ص612
[18] فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، جمع الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ج 12 ص 251 كتاب القضاء
[19] السابق ج 12 ص 280
[20] كتاب التوحيد للشيخ صالح الفوزان ص 46
[21] رواه البيهقي وحسّنه ابن حجر العسقلاني

وقد تعلق من دخلت عليه شبه المرجئة بقول ابن عباس وأبي مجلز من التابعين عن آية المائدة 47 وأنها " . .كفر دون كفر" . وقد ردّ على هذا القول المحدث الجليل أحمد شاكر وأخوه العلامة المحقق محمود شاكر ، وبيّنا أن هذا المناط الذي قال فيه أبي مجلز ومن قبله ابن عباس، هو مناط من خرج على أئمة الجور مثل بني أمية وكان منهم من يظلم ويفسق ، ولكن دون تبديل قاعدة الحكم والاستناد إلى قوانين مرتبة مقننة أو استبدال شرع بشرع آخر جملة وتفصيلا . وإليك ما قال أحمد شاكر في عمدة التفسير في الحديث عن تفسير آية المائدة :

وهذه الآثار – عن ابن عباس – مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا من المنتسبين للعلم ومن غيرهم من الجرآء على الدين يجعلونها عذرا أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة التي ضربت على بلاد الإسلام . وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه فيما يصنع بعض الأمراء من الجور فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة عمدا إلى الهوى ، أو جهلا بالحكم . والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء ليكون لهم عذراً فيما يرون من الخروج بالسيف . وهذان الأثران رواهما الطبري وكتب عليهما أخي السيد محمود شاكر تعليقا نفيسا جدا فرأيت أن أثبت هنا نص الرواية الأولى للطبري ثم تعليق أخي على الروايتين .

"فروى الطبري عن عمران بن حيدر قال : أتى أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس فقالوا : يا أبا مجلز أرأيت قول الله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ؟ أحق هو ؟ قال :نعم ، قالوا : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ، أحق هو ؟ قال :نعم ، قالوا : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، أحق هو ؟ قال :نعم ، قالوا : يا أبا مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله (يريدون الأمراء الظالمين من بني أمية) قال : هو دينهم الذي يدينون به وبه يقولون ، واليه يدعون ، فإن تركوا منه شيئا عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً ، فقالوا لا والله ولكنك تَفَرُقْ ! قال : أنتم أولى بهذا مني (يعني أنهم هم الخارجون لا هو) لا أرى، وأنكم ترون هذا ولا تحرّجون" فكتب أخي السيد محمود بمناسبة هذين النصين :

اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة ، وبعد ، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا ، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله وفي القضاء في الدماء والأموال والأعراض بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام . فلما وقف على هذين الخبرين ، اتخذهما رأيا يرى به صواب القضاء

في الدماء والأموال والأعراض بغير ما أنزل الله وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفّر الراضي بها والعامل عليها. والناظر في هذين الخبرين لا محيص له من معرفة السائل والمسئول ، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني الدوسي) تابعي ثقة وكان يحب عليا. وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان من شيعة علي يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين ، واعتزلت الخوارج ، كان فيمن خرج على علي طائفة من بني شيبان ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل ، وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس وهم نفر من الإباضية . . . . . هم أتباع عبد الله بن إباض من الحرورية (الخوارج) الذي قال : إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك **!** فخالف أصحابه . . .

ومن البيّن أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان ، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عنه ، ولذلك قال في الأثر الأول : فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا ، وقال في الخبر الثاني : إنهم يعملون بما يعملون وهم يعلمون أنهم مذنبون"

وإذن ، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعوا زماننا من القضاء في الدماء والأموال والأعراض بقانون مخالف لغير شرع الإسلام ، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام ، بالإحتكام إلى حكم غير الله في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي له .

والذي نحن فيه اليوم ، هو هجر لأحكام الله عامة دون استثناء وإيثار أحكام غير حكمه ، في كتابه وسنة نبيه ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله . . . . فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سنّ حاكم حكما جعله شريعة ملزمة للقضاء بها . .

وأما أن يكون كان في زمان ابي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر جاحدا لحكم الله أو مؤثرا لأحكام أهل الكفر على أهل الإسلام (وهي حال اليوم من أثر أحكام الكفر على أحكام الإسلام) فذلك لم يكن قط ، فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه ، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في بابهما ، وصرفها عن معناها ، رغبة في نصرة السلطان، أو احتيالاً على تسويغ الحكم بما أنزل الله وفرض على عباده ، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد

لحكم من أحكام الله ، أن يستتاب ، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله ورضي بتبديل الأحكام ، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين " .

ثم إن الحديث عن آية المائدة يمكن التعليق [22] عليه بما يلي :

- أن كلمة "الكافرون" – ومثلها الظالمون والفاسقون - لا تأتي في القرآن بمعنى الكفر الأصغر على الإطلاق، كما قرر الشاطبي في الموافقات حيث قال أن :" القرآن آتيا بالغايات تنصيصا عليها ، من حيث كان الحال والوقت يقتضي ذلك ، ومنبهاً على ما هو دائر بين طرفيها ، حتى يكون العقل ينظر فيما بينهما بحسب ما دلّه الشرع" [23]. وإنما يأتي الكفر الأصغر أو ما يسمونه "الكفر العملي" في السنة كما في حديث "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" [24] أو حديث البخاري في النساء "تكثرن اللعن وتكفرن العشير" [25]

- أن مناط الحكم هنا هو مناط التشريع لا المعصية سواء من الحاكم أو الفرد . فالحكم المقصود هو إقامة شريعة موازية لشرع الله تعالى ، لا مجرد ارتكاب مظالم فردية في حقوق الناس . وشتان بين من يشرّع قوانين كاملة تحل محل شريعة الله في حياة الناس ومن يحكم بشهوة في قضية أو بعض قضايا معينة . وهذا التفريق بين المناطين هو ما وقع فيه من نفر من الدعاة والعلماء ممن أصابتهم جراثيم الإرجاء ، كالألباني والقرضاوى وغيرهم . ولسنا ممن يتبع الأسماء في قضية التوحيد ، فأمرها أجلّ من أن يقلد فيه المسلم .

- أن آية "ومن لم يحكم بنا أنزل الله فأولئك هم الكافرون" جاءت بصيغة العموم وهي "من في معرض النفي" . ومن هذا يتعين أن يكون لها مخصص "شرعي" لترتفع عنها صورة العموم . وما جاء به هؤلاء ممن أصابتهم جرثومة الإرجاء من قول لابن عباس أو لأبي مجلز إنما – على أنه مناط من المناطات التي يمكن أن تكون تندرج تحت عموم الآية باختلاف مناطاتها – لا يصلح أن يكون مخصصاً إذ أن :

---

[22] راجع في ذلك بتفصيل كتاب "حد الإسلام" للشيخ عبد المجيد الشاذلي وكتابي "حقيقة الإيمان"
[23] الموافقات ج3 ص140
[24] الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد
[25] الحديث رواه البخاري في باب "كفر دون كفر"

- قول الصحابي لا يخصص عموم القرآن كما هو الصحيح فيما تقعّد من أصول الفقه.
- أن قول ابن عباس أو غيره في هذا ليس بتفسير للآية بل هو تنزيل لمناط من مناطاتها، فليس بمخصّص حقيقيّ .
- وإن سلّمنا جدلا بأن ابن عباس قد قال هذا تفسيراً – وهو غير صحيح كما هو بيّن في منطوق الحديث – فإن تفسير الصحابيّ إنما يعتبر من قبيل المرفوع إن كان فيما هو ليس مما يحتمل اجتهادا كما هو مبين في أصول الفقه وقواعد الحديث ، وإلا فهو اجتهاد له .

فسيد رحمه الله إذن لم يتعد أقوال العلماء، أو ما هو معتمد من أصول الفقه أو التفسير أو قواعد الحديث في تناوله لقضية "الحكم" . وإن كان لغيره اجتهاد في ذلك – رغم إنها مسألة غير اجتهادية كما قرر الإمام محمد بن إبراهيم، لمن كان قلب أو ألقى السمع وهو شهيد – فليس له أن يحكم بزلل سيد وأنه حامل لواء التكفير في هذا العصر! فإن ذلك لا يعكس إلا جهلا بسيدٍ وجهلا بالشريعة وقواعدها وهوى مرديا أو نفاقا ظاهراً .

البعد التقييميّ في فكر سيد قطب :

لمّا كان سيد رحمه الله يفهم طبيعة الإسلام، وأنه إنما جاء ليوجه حياة البشر ويحكمها ، وأنه ليس دين صوامع وبيِع، بل دين علم وعمل ، فقد رأى أنه لا بد من النظر في الواقع المحيط وتحليل المعطيات والمواقف بشكل دقيق، ليمكن أن نرى أين يقف الناس اليوم من الإسلام – المسلمون منهم وغيرُ المسلمين على حدّ سواء . وهذه العملية التقييمية هي مما وجّه اليه القرآن، يقول الله تعالى : "كذلك نفصّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين" [26] ، ويقول تعالي : "ليميز الخبيث من الطيب" [27] . فتمييز الصالح من الطالح هو غرض من أغراض الشريعة ومقصد من مقاصدها لمن فهم هذا الدين . ولننظر فيما قاله سيد في هذا الصدد لنرى كيف قيّم الواقع ، ومن أين أتت هذه الشبهة التي لا أصل لها في حديثه ، شبهة التكفير .

يقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى : "وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ" [28] ".

---

[26] الأنعام 55
[27] الأنفال 37
[28] الأنعام 55

1. " . . ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا . . إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين ، في أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للإسلام ، يسيطر عليها دين الله ، وتُحكم بشريعته . . ثم إذا هذه الأرض ، وإذا هذه الأقوام ، تهجر الإسلام حقيقة، وتعلنه اسما. وإذا هي تتنكر لعقيدة الإسلام اعتقادا وواقعا وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا. فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد أن الله - وحده - هو خالق هذا الكون المتصرف فيه وأن الله وحده هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله وأن الله - وحده - هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله - بهذا المدلول - فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد، كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه. وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله - بهذا المدلول - فهي أرض لم تدن بدين الله ولم تدخل في الإسلام بعد. وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين. وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله - بذلك المدلول - ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول"[29] .
2. وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين وطريق المشركين المجرمين واختلاط الشـارات والعناوين والتباس الأسماء والصفات، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق .
3. ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل " تهمة" يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام ، تهمة تكفير " المسلمين". ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله [30].

[29] الظلال ج2 ص 1106 سورة الأنعام آية 55
[30] السابق نفس الجزء والصفحة

4. هذه هي المشقة الكبرى وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل"[31] .

ولا شك أن القارئ المتعجل قد يرى في هذا النصّ ما يرضى وَلَعه في نبذ الرجل وإلقاء تهمة التكفير عليه ، إلا إنه ما هكذا تورد الإبل! ولا تُعامل مثل هذه النصوص، ولا هكذا يُنظر إلى مثل هذا الرجل وكتاباته . ولنتناول فقرات هذا النص واحدة تلو الأخرى بالنظر والتحليل .

نلاحظ أنّ سيدا في الفقرة الأولى ، وفي هذا النص عامة ، قد تحدث عن أمرين ، ولنقل وجودين ، "الأرض" و "الأوطان" ، و"الأقوام" أو "الناس" فهو يتحدث عن :

- الوجود الإسلاميّ المتمثل في "نظام" يسرى في أرض من الأرض (أو وطن من "الأوطان") .
- من يعيش على هذه الأرض ، وفي هذه الأوطان بصفتهم الجماعية (الأقوام ، الناس). أي بعبارة أخرى عن هؤلاء الذين يعيشون على هذه الأرض بصفتهم الجماعية (كمجتمع يدير نظام هذا الأرض) .

ويقرر سيد أنّ :

- هذا الوجود الإسلامي "كنظام" له أحكامه وقوانينه الخاصة وآلته العسكرية التي تحمى هذه القوانين ، ليس من الإسلام في شيء إن كانت قوانينه وشرعته ليست هي قوانين الله وشرعته.
- أنّ المجتمع أو الأفراد (بصفتهم الجماعية لا الفرديّة) ممن يعيش على هذه الأرض ، إن رضوا بهذه الأحكام وفصلوا حقيقة "لا إله إلا الله" عن مجرد النطق بها ، كانوا اجتماعهم هذا على غير شرعة الله وخرجوا بذلك "بصفتهم الاجتماعية" عن دين الله .

وهنا وقع من وقع في الخلط بين الحكم على فرد من الأفراد أو على "معيّن" كما يحب أهل الأصول أن يطلقوا عليه، بإسلام أو بكفر ، وأن يُحكم على نظام يحكم بشرعة جاهلية أو على مجتمع يعيش على هذه الشرعة ويتقبلها ويرضى بها بديلا لشرعة الله . ليس هناك دليل واحد

---

[31] السابق

من كلام سيد أنه قصد أعيان الناس، أو الأفراد بصفتهم الفردية، إذ إنه لا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة حال كل شخص على حدة ليمكن أن يحكم عليهم بناءً على ذلك ، وهو أمر من ادعى أنه قادر على إحصائه فقد حكم على نفسه بالخبال ، فلا يمكن أن يستقرأ أحدا دين الناس فردا فردا ، لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى . فالتفرقة بين هذه الأمور الثلاثة واجبة لفهم الرجل وفهم الإسلام على حدّ سواء :

- النظام الحاكم .
- المجتمع المحكوم (أو الأفراد بصفتهم الجماعية) .
- الأفراد بصفتهم الفردية كمعينين .

ومن لم يستطع أن يلحظ هذا الفرق فعليه أن يعمل على تقوية قدرته على التحليل ودقة الاستنباط ، إذ أن هذه الدقة في النظر والتفرقة فيما قد يشتبه على النظر العادي هي ما يميّز العالم من الجاهل ، والفقيه من المتفيقه**!**

ويواصل سيد – رحمة الله عليه - في الفقرة الثانية والرابعة تقييم الواقع من حيث ما تواجهه الحركات الإسلامية الهادفة إلى تصحيح المفاهيم ، وإزالة الغبش الذي يرون على التصورات ومن ثمّ على القدرة على رؤية الداء، ثم على تحديد ووصف الدواء.

ثم ، مما لا يشك فيه عاقل أن هناك ناسا من الناس ممن يعيش في هذه المجتمعات "الإسلامية" قد فارقوا دين الله بالفعل ، وإلا فماذا يقول من ينكر ما ذكره سيد ، في أمثال أولئك الذين يسبّون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرمونه بكل رخيص من الحديث في مقالاتهم ورواياتهم باسم الفن والحرية والتقدم ، أو كدعاة العلمانية الصريحة ونبذ الشريعة لعدم موافقتها للحاضر المتحضر **!** أو المساواة بين الأديان الثلاثة (ولا نعنى مساواة الحقوق بين أتباعها بل نعنى المساواة بين الأديان الثلاثة ، حرفيا ، فلا فرق بينها ، فكلها حقّ **!!**). ما1ا يقول قائلٌ في سعد الدين الهلاليّ أو إبراهيم عيسى أو ما شئت من هذه المخلوقات المتمردة على دين الله؟**!**

ثم يكمل سيد تحديد رؤيته للواقع ، وكأنه يعرف ما سيرميه الناس به ، فيرى أنّ أعداء هذا الدين ، سواء أعداءه الأصليين ممن لا يؤمنون به أصالة ، كهؤلاء الذين ذكرنا ، أو من حملته الغفلة أو الجهل أو الشهوة أو الحسد، أو كلّها معا ، على أن يشارك في نشر هذا الفهم المريض

ثم التقييم الخاطئ ، بأن يرعب المسلمين من فكرة تمييز من خرج على الدين ، حتى يبقى الأمر مائعا، ويختلط الحابل بالنابل، والغثّ بالسمين. وفي مثل هذه الأجواء يبيض الكفر ويفرخ ، ويلتحق بكتيبة المفارقين للدين أعداد أكبر من الأفراد، وتصحّ مقولة جاهلية المجتمع أكثر وأكثر . هذا ما بيّن سيد من مخطط هؤلاء من أعداء الدين، وما يقود اليه عمل أولئك النفر من المغفلين والجهلة من المسلمين سواء عامتهم أو دعاتهم ممن حمل جرثومة الإرجاء في حنايا فكره . ويلاحظ أن سيداً قرر في كلامه أنّ "تكفير المسلمين" تهمة لا شك فيها ، فهو يعرف أن الحكم بالكفر على شخص من الأشخاص أمر يجب أن يكون عليه برهان أسطع من شمس النهار. ولكنه أمر يحدث في عالم الناس أن يرتد نفر من النفر، وإلا فلم قال الله تعالى :" ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافرٌ فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة و أولئك هم أصحاب النار هم فيها خالدون" [32]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "من بدّل دينه فاقتلوه" [33] ، هذا يستتبع أن من الناس من يكفر بعد إيمان ، وأنه يمكن – بل يلزم – تعيينه حين القدرة على إقامة الحد - ممن له سلطة إقامة الحدّ. فأمر تعيين المبدل لدينه أمر مشروع لمن لديه العلم الكافي والدليل الساطع من الكتاب والسنة ، ثم تبقى الحاجة إلى هذا التعيين ، فإن كانت هناك حاجة إلى التعيين ، لبيان خطره أو التحذير من دعوته ، أو إن كانت إقامة الحد مقدور عليها من قبل السلطان أو الوالي، وجب بيان كفره .

فهل تجاوز سيد الحدّ أو جانب الصواب فيما قرر ؟ أيمكن لمن يرميه بمثل هذه التهم أن يصف مجتمعات المسلمين اليوم – بشكل عام - بغير صفة الجاهلية ، إذ تتحاكم إلى أحكام الجاهلية على المستوى القانوني والتشريعي ، وإلى الكثير من الأعراف والتقاليد الجاهلية على المستوى الجماعي الاجتماعي . وأما عن أفراد الناس فكلٌّ وما يعتقده وكلٌّ وما يدين الله به ، ولا يقول سيد ولا غيره ، إلا ممن انتسب إلى الخوارج قديما وحديثا ، بالتكفير العام لكل أفراد هذه المجتمعات الحالية فردا فردا .

الحديث يا سادة عن هوية المجتمع الذي تسرى فيه هذه الأدواء ثم يرضاها ويخضع لها ، وليس الحديث عن هوية الفرد المسلم التي حماها الله سبحانه من فتنة التكفير – إلا بدليل ساطع.

---

[32] البقرة 237
[33] رواه البخاري

ثم إن سيداً قد قصد إلى إيقاظ ما خمد في نفوس المسلمين من غيرة على دين الله ، ومن غضب لله، بعد أن استشرى البعد عن منهجه سبحانه في حياة الناس عامة، وفيما تحاكموا اليه خاصة، بحكم ما اتخذوه من شرع وقانون. والظلال والمعالم كتب دعوة خُطّت بأدب راقٍ، ومن ثمّ ما يجرّه الأسلوب الأدبيّ، الذي هو معجزة القرآن، على صاحبه من أساليب وطرق في التعبير لا تتفق وأساليب كتب الفقه أو أصوله ، فلا يصلح إذن أن ينبش الناس فيها عن معايير الفقه وأصوله، أو أن يستنبطوا منها أحكاما معينة، إذ ليس لهذا الغرض كتبها الكاتب، وليست هي مما يجب أن يتتبعها الناس بالنقض والنقد من هذا الباب، رغم إنها قد حوت من الفقه ما يملأ مجلدات في إبّان تفسير آيات الأحكام، لا ينكر ذلك إلا أعمى بصرٍ وبصيرة. وليس خطأ سيد أن اتخذ فريق من الشباب المغرور أو المغرر به كتاباته على أنها تكفيرية. ليس هو ذنب سيد أو جريرته إذ أن القرآن نفسه وهو كتاب الله المُبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد اتخذته كل فرق المبتدعة، ممن هم على طرفي النقيض ، ذريعة لتأويلاتهم المرضية، وكلام الله ممّا يدعون برئ. فليس كلام سيد إذن بدعا من البدع ، بل كل كلام يمكن أن يؤوله قارؤه على هواهم .

مرة أخرى :

من لم يستطع أن يلحظ هذا الفرق فعليه أن يعمل على تقوية قدرته على التحليل ودقة الإستنباط ، إذ أن هذه الدقة في النظر والتفرقة فيما قد يشتبه على النظر العادي هي ما يميّز العالم من الجاهل ، والفقيه من المتفيقه**!**

البعد الحركي في فكر سيد قطب :

يقول سيد في تفسير آية الأنعام :

"يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ويجب أن لا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف وألا تقعدهم عنها لومة لائم ولا صيحة صائح انظروا إنهم يكفرون المسلمين.

إن الإسلام ليس بهذا التمييع الذي يظنه المخدوعون ، إن الإسلام بَيِّن والكفر بَيِّن ، الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله - بذلك المدلول - فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين"[34] .

ويقول في المعالم :

"ولكن الإسلام لا يملك أن يؤدي دوره إلا أن يتمثل في مجتمع ، أي أن يتمثل في أمة . . فالبشرية لا تستمع - وبخاصة في هذا الزمان - إلى عقيدة مجردة ، لا ترى مصداقها الواقعي في حياة مشهودة . . و " وجود " الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة . . فالأمة المسلمة ليست " أرضًا " كـان يعـيش فيها الإسـلام . وليست " قومًا " كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامي . . إنما " الأمة المسلمة " جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي . . وهذه الأمة - بهذه المواصفات ! قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعًا . "[35]

ويقول : " لا بد من " بعث " لتلك الأمة التي واراها ركام الأجيال وركام التصورات ، وركام الأوضاع ، وركام الأنظمـة ، التي لا صلة لها بالإسلام ، ولا بالمنهج الإسلامي . . وإن كانت ما تزال تزعم أنها قائمة فيما يسمى " العالم الإسلامي "![36]

عرف سيد أن الإسلام هو دين الحركة والواقع، وليس بدين العلم المجرد والنظر البحت، فخاطب المسلمين بما يراه مناسبا للحركة بهذا الدين، إذ إن ذلك هو نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم . لم يتلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وعلّمه للصحابة الكرام دون أن يتحرك به في مجتمعه فيقيّم المعوج ويصلح الفاسد ويرجع الناس إلى الإيمان بالله ، حق الإيمان ، لا الإيمان المخلوط بتهيؤات البشر من اتخاذ الصالحين زلفى إلى الله، أو أن يتخذوا من أهوائهم شرعة ومنهاجا يحكمون به في حياتهم. عرف سيد ذلك كله فتوجه إلى المسلمين ممن آلوا على أنفسهم أن يحيوا بهذا الدين ولهذا الدين ، مخاطبا بما رآه يصلح كخطة للعمل والحركة ، فقرر أنه يجب أن يبدأ الدعاة في تفهم الواقع المحيط بإيجابياته وسلبياته، وأن

[34] الظلال ج2 ص 1107
[35] المعالم 4
[36] المعالم 5

يتحققوا بالهدف الذي يسعون إليه ، حتى لا ينشغلوا عنه بسواه، او أن يخطئوا طريق الدعوة بافتراض الواقع على غير ما هو عليه ، فإن الدواء الناجع لا يكون إلا بناءً على التشخيص السليم، وإن كان الوقوف على الداء الحقيقي مرّا ومؤلماً.

ويحسن هنا أن نعلق على ما ذكر سيد في هذا النص ، قال : {ووجود" الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة} . مرة أخرى ، إدعى هؤلاء النفر ممن ينتسبون إلى السلفية! أن سيداً يكفّر أفراد الناس، وأقول أنه رغم أن سيداً جانبه الحذر في استخدام الكلمات ليعبّر بها عن فكرة صحيحة، إلا إن ذلك لا يعنى أنه كفّر الناس بعامة. فإن النص يتحدث عن أمرين : انقطاع وجود الأمة الإسلامية ، وعن انقطاعها منذ قرون عديدة . وانقطاع الوجود الذي يتحدث عنه سيد هو انقطاع وجود الأمة المسلمة (بهذه المواصفات) التي حددها ، أي الأمة التي تحكم بالإسلام في شرعها وقوانينها ، وتتحكم الأعراف والتقاليد الإسلامية في حياة أقوامها . وكلا الأمرين ، الوجود التشريعي للنظام الإسلامي و العادة والعرف الإسلامي في حياة الناس، قد انسحب تدريجيا من حياة الناس في هذه المجتمعات بدءا بتحول المجتمع إلى مراعاة الأعراف والتقاليد الجاهلية شيئا فشيئا ، إلى أن تحول النظام برمته إلى التحاكم إلى غير شرع الله بسقوط الخلافة ، كما أشار سيد في الجزء الأخير من النص " وهذه الأمة - بهذه المواصفات ! قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعًا " . لهذا أشار سيد إلى أن ما يتحدث عنه إنما حدث – أو الأحرى أن يقال بدأ في الحدوث - منذ قرون عديدة . وسيد يعرف أن هذه الأمة – بمعنى أن الإسلام يختفي من الأرض وأن ينقلب الناس كلهم كفاراً – كما يوحى هؤلاء النفر من أدعياء السلفية - لم ولن يحدث أبدا إذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكر – وهو الصادق المصدوق – أنه "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق" [37] ، فانقطاع الأمة بمعنى كفر عامة أفرادها هو مما لا يقول به سيد ولا غيره ، بل هو مما علم من الدين بالضرورة خلافه ، فكيف يغفل عن هذه الحقيقة – التي يعرفها طالب السنة الأولى في كلية الشريعة - سيد رحمه الله؟

فكلام سيد واضح في الطريقة التي يراها الأنجع في العودة بالمجتمع والنظام إلى الإسلام، أن يعود الإسلام إلى الوجود المتكامل في حياة الناس، كنظام وكمجتمع ، بعد أن غاب عنهم منذ انهيار الخلافة.

---

[37] الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد

نقطة أخيرة أود أن أتحدث عنها، وهي ما قيل عن "العزلة الشعورية" التي نبه سيد إلى التلازم بينها وبين الإيمان في قلب المسلم . قال:

"كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية ، فهو قد انفصل نهائيًا من بيئته الجاهلية واتصل كليا ببيئته الإسلامية . حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي ، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .

وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعُرْفها وتصورها ، وعاداتها وروابطها ، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته . "[38]

مرة أخرى ، ترى هل جانب سيد الصواب فيما قرره بهذا الشأن ؟ اللهم لا. إن سيداً كما هو ظاهر من حديثه، لا يدعو إلى الهجرة من الأوطان – كما دعا اليها من انتسبوا إلى جماعات الخوارج في العصر الحديث، بل هو يقرر أن المسلم يعيش بين من انتسب إلى الجاهلية – سواء، جاهلية العوائد أو جاهلية القوانين، على حسب الحال - ويتعامل معهم، لكن على علم بما هم فيه من جاهلية عادات أو تقاليد أو أعراف أو قوانين، وعلى حذر من خلط الأمور والذهول عن الطريق والالتزام بالمفاهيم. إن سيداً يعني – باختصار – في هذا الحديث ، قواعد الولاء والبراء، وإن عبّر عنها بطريق أدبيّ اختاره ليكون بالغ التأثير في النفوس بما لا يؤثر فيها من أساليب الفقه ومقررات الأصول وجفاف القواعد الفقهية. فهل في مقررات الولاء والبراء ما ينكره هؤلاء النفر من أدعياء السلفية؟ وسيد يقرر أن قواعد الولاء والبراء لا يمكن أن يتبعها الفرد المسلم إن لم تكن حيّة في نفسه، ليعرف حدود ما هو مسموح به في التعامل مع الواقع وما هو ممنوع عنه.

وكثير من الناس قد مرّ في حياته الشخصية بهذه المرحلة التي يصفها سيد، مرحلة البعد عن الله وعن منهاجه وعن شرعه، أي مرحلة الجاهلية، وإن كان لا يزال منتسبا للإسلام . ثم كان

---

[38] المعالم 14

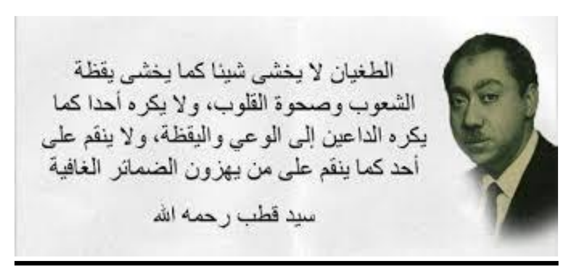
التحول في حياته ، فانخلع عن العادات والمفاهيم التي تضاد الإسلام ، لا أقول انقطع عن ارتكاب المعاصي، بل انخلع من ربقة المفاهيم الجاهلية ذاتها، والفرق واضح لمن يفهم الإسلام ويعرف الفرق بين المعصية، وبين التشبع بفهم الجاهلية والحياة بمفاهيمها. حين يحدث هذا في حياة ذلك الواحد من الناس فإنه يستشعر تلك المفارقة الشعورية لأصحاب الأمس وأحباب الأمس من المعارف والأقرباء، ويصبح وكأنه وحيدا بين الأهل، الذين لم يمسّهم هذا الشعور ولم يتحولوا هذا التحول. هي تجربة يعرف حقيقتها كلّ من عاناها.

ونخلص إلى القول إنه إن كان هؤلاء النفر من مدّعي السلفية، أو غيرهم من الدعاة الذين هاجموا سيداً، قد اتخذوا من التماس الأعذار للناس شعاراً، ثم لم لا يطبقوا هذا الشعار على سيد رحمه الله، وهو أولى من غيره بالتماس الأعذار من أن يهاجم ويجرّح ويقذف بالألفاظ البذيئة التي لا يرضى هؤلاء المخدوعون بأن يطلقونها على من هم من أشرار الخلق ممن يخضّع الناس للشرائع الإنسانية كبديل لشرعة الله، وعلى من يحسّن لهؤلاء مثل هذا التعدي على حق الله في أن يسود دينه في الأرض كنظام وأن يحكم المجتمع والفرد بمقرراته وعاداته وأعرافه ! أي عقل هذا وأي دين وأي خلق .

عافانا الله من مثل هذا الإثم والوهم والخطل ، آمين ، ثم للحديث عن سيد بقية إن شاء الله تعالى

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

سيد قطب .. وفرية سبّ الصحابة



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

الرجل، انتقل إلى حيث يقف بين يديّ الله سبحانه، وآثاره التي انتهى عليها، موجودة بين أيدي الناس لا تزال، تنشئُ أجيالا منذ استشهاده على يد الطاغية الملحد عبد الناصر. لكن الحقد والحسد والغلو والبهتان، ونصرة الباطل، لا تزال تغلي مراجلها في قلوب فئة حرّفت كلام الله والتوت بسنة رسوله ﷺ وشوهت حديثه ﷺ، لا تزال تسير في محاولة تحطيم رجل كالجبال قامة، يقفوا أمامه أقزاما عفنة تقبل أقدام أسيادها من خونة الحكام وتبرر كفرهم.

الرجل هو سيد قطب رحمه الله، والفئة الباغية هي فئة المداخلة، الذين وصلت بعض تصرفاتهم وتأويلاتهم إلى الكفر البواح، الذي فيه من الله براهين.

والقضية هي ما كتب سيد رحمه الله في أول حياته الفكرية، وهو في أوائل الثلاثينيات من العمر، حين كان أديباً شاعراً ناقداً حذقاً، لكن لم يكن إسلاميّ التوجه، ولم يكن كتاب الله قد مسّ شغاف قلبه بعد. وهو لا ينكر ذلك، بل أثبت أنه تحيّر في الطريق، سنين عدداً، فهل في هذا ما يعيب؟ ألم يتحير أبو حامد الغزاليّ وأثبت ذلك في كتابه "المنقذ من الضلال" بعد؟! ألم يتحير الأشعري وغاص في بلاءات المعتزلة حتى رجع عنها، أو غالبها، في كتابه "الإبانة"، ومات وهو على عقيدة الإمام أحمد، إمام السنة بإطلاق؟! فما بالنا لا نفسح المجال لسيد قطب أن يكون أديباً شاعراً ناقداً حذقاً، غير إسلاميّ، يرتكب الخطأ، ثم يرى نور الله يهديه، فيرجع عنه؟!

هذا لا يكفي في عرف جماعة الشؤم والشذوذ، المدخلية، لماذا؟ لأنّ سيداً رحمه الله كان عَلَم الوقوف في وجوه الطواغيت، وكاشف ستر الضباب الاستشراقيّ الصوفيّ الطاغوتيّ عن مسائل التوحيد في عصرنا.

انظروا في كتاب إمام المبتدعة في عصرنا ربيع المدخليّ، في تهوساته بكتابه "مطاعن سيد قطب في صحابة رسول الله ﷺ "! كل الكتاب مبنيّ على ما دوّن سيدا رحمه الله في كتاب "العدالة الاجتماعية". وهو كتاب دوّنه في تلك الفترة التي أشرنا لها من التخبط، وهو ذلك الأديب الشاعر الناقد الحذِق، ثم يبرأ منه كما ذكر ذلك أخوه محمد قطب في هامش طبعة من الظلال عن الكتب التي سمح بطباعتها مرة أخرى، ومنع غيرها[39].

كان سيد رحمه الله في تلك الفترة ممن يقرأ كتب العقاد، ويتبعه في منهجية الفكر، ولا يُخفى إعجابه به وتعظيمه له وتتلمذته عليه، وقد دافع عنه في مواطن عدة، ونافح عن مدرسته الشعرية، ووقف معه أيام كان العقاد يقف مع حزب الوفد. والعقاد معروف بأنه مفكرٌ عبقري الكلمة متعدد المواهب، لكنه لم يدعِ لنفسه، ولم يدع عليه أحدٌ، إنه "إسلاميّ" المنهج. ومن هنا جاء انحياز سيد عنه، وأصبح هذا ظاهراً بعد رحلته إلى أمريكا، والتي كان لها أكبر الأثر في التحول الخطير الذي عرض له صاحبنا رحمه الله.

كان همّ سيدٍ في كتابه عن العدالة الاجتماعية في الإسلام، هو أن يدفع شبه "الاشتراكية" و"الشيوعية" في عصره، من وجهة نظر " الأديب الشاعر الناقد الحذِق"، تلميذ العقاد. وكان منه اضطراب في تأويلات لأفعال بعض الصحابة، فأساء ولم يُحسن، هذا مما لا نجادل فيه.

ولا شك أن الثبات على ما قال في عثمان ومعاوية وعمرو ابن العاص رضي الله عنهم، هو لون من الزندقة والخروج من السنة من أوسع أبوابها. لكن من قال أنّ سيداً ثبت على ذلك؟! هذا هو ما يجب أن يكون مفتاح باب الطعن في سيدٍ رحمه الله، لا إنه قال كذا وكذا في فترة من فترات حياته كان فيها "الأديب الشاعر الناقد الحذِق" لا غير!

ويكفي أن نثبت أمراً واحداً شهد به الخصم، ينفي تهمة الثبوت على ما قال في جاهليته، علما بأن ما أثبته الخصم في نقض قضيته هو هدمٌ أصليّ لها.

---

39 (١) «في ظلال القرآن»، لسيد قطب، نهاية الجزء الثالث عشر، من الطبعة المنقحة، الصادرة عام ١٩٦٤م. وقد ذكر المستشار عبدالله العقيل في مجلة المجتمع الكويتية الصادرة عام ١٩٧٢م، العدد رقم: (١١٢)، ص ٢٢، «إن سيد قطب -رحمه الله- قد بعث إلى إخوانه في مصر والعالم العربي أنه لا يعتمد سوى ستة مؤلفات له، وهي: (هذا الدين، والمستقبل لهذا الدين، الإسلام ومشكلات الحضارة، خصائص التصور الإسلامي، في ظلال القرآن، معالم في الطريق)».

قال المدخليّ في كتابه الأثيم ص 28:

> لقد أصرّ **سيد قطب وأخوه محمد بل الإخوان المسلمون** على بقاء هذا الطعن واستمراره أكثرَ من أربعين سنة ، على الرغم من تنبيه العقلاء على فظاعة هذا العمل وبشاعته .

انظر إلى تدليس المدخليّ الذي هو سمة كتاباته في كلّ ما دوّن**!** كما أثبتنا في مقالنا "القول الجليّ في فضائح المدخليّ"[40]. يقول داوم على هذا العمل أربعين سنة**!** ويتناسى المأفون ناصر الطواغيت، وآخرهم حفتر**!** أن سيداً منذ أن عاد في نهاية الأربعينيات، إلى أن قبض عليه عبد الناصر، الذي هو وليّ أمر المسلمين في مصر على مذهب المبتدع المدخليّ، أول مرة في 1955، وذلك بعد انتسابه للإخوان عام 1953. وكانت البلاد أيامها تغلى بانقلاب، وكانت نفس سيدٍ تغلي بانقلاب. أفلا يكون عذراً له أن أهمل هذه القضية إلى أن حان تغييرها **"قبل وفاته"**، حيث، بشهادة المدخلي المبتدع نفسه، أعاد طبع كتاب العدالة الاجتماعية عام 1964، أي قبل استشهاده بعامين، رافعاً ما كان الأستاذ محمود شاكر قد نبهه عليه، في الثلاثينيات، إبان وقت صدور الكتاب للمرة الأولي في جاهليته، وأضاف اليه فصلا من كتابه التصور الإسلاميّ.
انظر ما يقول المدلّس المدخليّ:

> وقد طُبع الكتاب عدّة طبعات في حياة سيد ، كانت آخرَها الطبعة السادسة التي أصدرتها (دار إحياء الكتب العربية) عام ١٩٦٤م . وهي طبعة منقَّحة؛ حيث حذف منها العبارات التي أخذها عليه محمود شاكر وغيره ، والمتعلّقة بعثمان ومعاوية . رضي الله عنهما . ، وأضاف لها فصل (التصوّر الإسلامي والثقافة) أحد فصول «معالم في الطريق» .
>
> أي : أنّ سيداً أضاف لكتاب «العدالة الاجتماعية» عام ١٩٦٤م أفكاره الحركية الإسلامية ، ودعوته إلى بعث طليعي ، واستئناف الحياة الإسلامية على أساس مبادئ الإسلام .
>
> وبهذا نعرف أن سيداً لم يتخلّ عن كتابه «**العدالة الاجتماعية في الإسلام**» ، بل بقيَ يقول بما فيه من مبادئ وأسس وأفكار حتى محنته عام ١٩٦٥م»(١).

---

[40] https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/72958

سبحان الله، يعترف أن سيداً "هو" من طبع الكتاب الطبعة الأخيرة في حياته، عام 1964، وأنه رفع منه الإساءة إلى الصحابة، ثم يُكمل كلامه الكّذِب! وقد رأينا أنّ سيداً قد منع طبع الكتاب بصورته الأصلية، حتى عاد وبدّله وصححه. لكن المبتدع المدخليّ يأخذ عليه أنه احتفظ باسم الكتاب دون مضمونه!

يعرف المدلّس أن الطبعات البيروتية لكتب سيد قطب بالذات كانت مشاعاً، حتى أوقف ذلك أخوه الأستاذ محمد قطب، في السبعينيات أو بعدها. لكن طبعة 1964، كانت بإشراف وتعديل وإضافة الأستاذ سيد رحمه الله.

فما كلّ هذا الضجيج والعجيج إذا؟! لقد تخلي الشهيد عن الإساءة التي اقترفها في كتابه المذكور، يوم أن كان ""الأديب الشاعر الناقد الحذِق" فحسب، لا "الأديب الشاعر الناقد الحذِق الإسلاميّ الموحّد رافع راية التوحيد وواضع الظلال والمعالم". وشتان بينهما.

وقد أثبت الأستاذ سيد في تفسيره العظيم "الظلال"، الذي أشعل نار الحسد والحقد في قلب المدخلي وغيره، لا تنطفئ كأنها الشعلة الأوليمبية تقود أممها في عماء إلى عماء، أنه يُكرِّم الصحابة رضي الله عنهم جميعا، ويذكر عثمان رضي الله عنه ومآثره ويترضّى عليه، ويذكر معاوية رضي الله عنه ويترضى عليه.

جاء في الظلال، رواية معاوية رضي الله عنه، عن أبي داود بطريق سفيان الثوري ما لفظه عند أبي داود " حدثنا عيسى بن محمد الرملي وابن عوف وهذا لفظه قالا:
حدثنا الفريابي عن سفيان عن ثور عن راشد بن سعد عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء كلمة سمعها معاوية من رسول الله نفعه الله تعالى بها"[41]. فنقله الأستاذ سيد رحمه الله، بلفظ "وقال سفيان الثوري ، عن راشد بن سعد ، عن معاوية بن أبي سفيان ، قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم يقول : «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء - رضي الله عنه - كلمة سمعها معاوية - رضي الله عنه - من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نفعه الله تعالى بها"[42]. فانظر كيف أضاف الترضية على معاوية، مع عدم ذكرها عند أبي داود.

---

[41] سنن أبي داود كتاب الأدب مسألة النهي عن التجسس.
[42] في ظلال القرآن، ج3346/6

وقال في الظلال ما لفظه "ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟[43]"

ونقل في الظلال حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، الذي نصه في الترمذيّ"حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَمُسَدَّدٌ الْمَعْنَى، قَالَا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي قَابُوسَ، مَوْلَى لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» لَمْ يَقُلْ مُسَدَّدٌ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[44]

ونصه في أبي داود "حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَمُسَدَّدٌ الْمَعْنَى، قَالَا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي قَابُوسَ، مَوْلَى لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» لَمْ يَقُلْ مُسَدَّدٌ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[45]

فنقله الشهيد من المصدرين، مضيفاً "رضي الله عنهما"، قال "ومن تعليم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية ، بهذا الأسلوب الموحي ، كان ينتقل بهم خطوة أخرى ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته ، ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعا ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها ، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل. عن ابن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «الراحمون يرحمهم الله تعالى. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» .. (أخرجه أبو داود والترمذي)[46]

إذن فما الأمر؟ ما أمر المداخلة؟!

- هو أمر إنكار توحيد التشريع والعبادة.
- هو أمر إثبات عبادة القصور ونفي عبادة القبور

---

[43] السابق ج 2917/1
[44] سنن الترمذي البر والصلة
[45] أبو داود كتاب الأدب باب الرحمة
[46] الظلال ج 2120/1

- هو أمر الإيمان بشفاعة الأحياء من ذوي السلطة وبعجز الأموات من أصحاب الأجساد العفنة.
- هو أمر نصر الطواغيت على الموحّدين، بحجة طاعة وليّ الأمر التي قدّموها على طاعة الله ورسوله ﷺ
- هو أمر بدعة منكرة شنيعة ربطت بينهم من أقصى مناحي الإرجاء، وبين الحرورية في أقصى مناحي التكفير، كما هو واضحٌ بيّن في قتالهم مع حفتر ضد أهل السنة في ليبياً، وهي الخاصية التي بيّناها عنهم في كتابنا "فتنة أدعياء السلفية وانحرافاتهم" طبعة 2004، قلت ما نصه " تشبّههم بالخوارج الذين حملوا السيف ضدّ أهل السنة ونصروا الكفار والمنافقين كما هو معلوم من حالهم، فترى هؤلاء يرمون الدعاة إلى الله بالكفر والإلحاد والبدعة والسقوط وما شئت من ألفاظ لا تليق إلا بأمثالهم، ثم تراهم يحرّمون أن يذكر أحد من أهل السلطة بشرّ أو أن ينتقد بأي حال من الأحوال وإن بدّل شرع الله سبحانه وأقام شرعاً موازياً يعبّد الناس له، يثيب من يتبعه ويقتل من يخالفه. منطق معكوس ومذهب موكوس! استباحوا به مخالفة كلام الله استباحة حقيقية لا مراء فيها"[47].

فلا يفزعنك مثل تلك التهم الجوفاء التي يرمي بها المرجفون أهل الرضا والتقوى، فقد عرفناها في لحن أقوالهم وأفعالهم على طول تاريخ المسلمين وعرضِه.

ورحم الله سيداً وأخزى ربيعاً.

د طارق عبد الحليم

17 مارس 2017 – 28 جمادي الآخرة 1439

7. وهي الخاصية التي بيّناها عنهم في كتابنا "فتنة أدعياء السلفية وانحرافاتهم" طبعة 2004، ص 18 راجع الأعمال الكاملة د طارق عبد الحليم المجلد الأول ص 473، طبعة دار الكتاب العالميّ اسطنبول

الطريق إلى إنقاذ الأمة - بين محمود شاكر و سيّد قطب

سيد قطب ومحمود شاكر – رحمة الله عليهما – عملاقان غنيان عن التعريف. فهما من عمالقة فكرنا الإسلامي الحديث لا يكاد يضاهيهما أحد في مكانتهما في الفكر واللغة والأدب، وإثراء المكتبة الإسلامية وتغذية عقول أبناء الإسلام في عصرنا، لا ينازع في هذا إلا مكابر معاند ركبه الهوى والحسد لمكانتهما أو جاهل غرّير ليس من العلم في كثير أو قليل.

وقد كان السّجال بين الرجلين حول أدبيات ذينك الزمن معروفاً في الأربعينيات من القرن الماضي، ولا أظن أنه أفسد ما بينهما إذ إن كلا الرجلين أكبر من أن تفسد نفسه لخلاف أدبيّ كان من سيماء العصر المنصرم. ولسنا بصدد الحديث عن تلك المعارك الأدبية التي احتدّت بين الرجلين حول العقاد وأدبه وشعره، وإن كان ذلك مما يجب التصدي له في موضع آخر لأهميته في فهم منطلقات الرجلين، وتطورهما الفكريّ، خاصة فيما يخص الأستاذ سيد رحمة الله عليه .

إنما نريد أن نتقصّى في هذا الموضع أمراً آخر، انعكس في كتابات الرجلين ونحسب أنه من أهم ما يمكن أن يرجع اليه المسلمون في عصرنا هذا، إذ هو يتعلق برؤية كلٍ منهما في الطريق الناجع إلى إحياء الأمة وإعادة مجدها والنهوض بأبنائها لتحتل مكان الصدارة كما ينبغي لها في قيادة البشرية .

يذهب الأستاذ محمود شاكر فيما كتب إلى أن الطريق إلى تحقيق ذلك الأمر يكون من خلال انبعاث "رجل" من عامة الناس، يعاني معاناتهم ويتفهم مشكلاتهم ليرتفع فوق الواقع ويجدد للأمة مجدها .

يقول الأستاذ محمود في نصّ لا يحتاج إلى مزيد بيان في غرضه هذا: "إن هذا الإصلاح الآن موقوف على شئ واحد، على ظهور "الرجل" الذي ينبعث من زحام الشعب المسكين الفقير المظلوم يحمل في رجولته السراج الوهاج المشتعل من كل نواحيه ، الرجل المصبوب في أجلاده من الثورة والعنف والإحساس بآلام الأمة كله ، وآلام الأجيال الصارخة من وراء البنيان الحي المتحرك على هذه الأرض الذي يسمى "الإنسان" [48] . ثم يبين الأستاذ أن "ظهور

[48] مجلة الرسالة ، السنة الثامنة – عدد 340 ، 1940 ،تحت عنوان "الإصلاح الاجتماعي" ، عن كتاب "جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر" جمع الدكتور عادل سليمان جمال ، نشر مكتبة الخانجي ، ج1ص52

هذا الرجل ليس بالأمر الهيّن ، ولا إعداده بالذي يترك حتى يكون" . ثم يبيّن الأستاذ شاكر أن وسيلة ظهور مثل هذا الرجل لا تكون إلا بأن يمهّد الأدباء والعلماء والإصلاحيون في هذه الأمة لهذا الظهور بأن "يرموا بما يكتبون إلى إيقاظ كل كامنة من نار الهداية المحاربة التي لا تخمد ، . . . فهو يمشى بها في كل عمل ولو في نقل البريد من مكان إلى مكان. إذن فأول الإصلاح الاجتماعي هو إدماج عواطف الفرد في مصالح الجماعة". ثم يخلُصُ إلى أنّ تهيئة هذه الظروف الاجتماعية قمين بأن "يبعث الرجل الذي سوف يضيئ للحياة الاجتماعية سُدَف الجهل والبغي والاستبداد" [49] .

فمذهب الأستاذ محمود إذن ينبني على أن الإصلاح موقوف على "رجل" يقود الشعب ، وهو مستلهم في هذا للمنهج الرباني في إرسال "رجل" نبي أو رسول إلى قومه ثم إن هذا الرجل - في غير حالة الرسول أو النبي - لينشأ من براعم ذلك الخليط المتجانس من النخبة العالية التي تتربى على أرفع المبادئ وأقوم الأخلاق.

والأستاذ سيد يذهب في هذا الأمر مذهباً آخر، إذ يرى أن الفرد الملهم ليس بحتمية تاريخية يتوقفُ عليها إنقاذ الأمة، بل على العكس من ذلك، فإن النجاة تتحقق بمجموع الأفراد ذوى المبادئ والأخلاق الذين يقوم على جهدهم المجتمع المثالي. وفي هذا الصّدد يتحدث الأستاذ سيد عن تلك "الفئة" أو "الطليعة" التي تستعلي بالإيمان و"تقود البشرية" .

يقول الأستاذ سيد: "لقد خرّجت هذه الدعوة جيلا من الناس - جيل الصحابة رضوان الله عليهم - جيلا مميزا في تاريخ الإسلام كله وفى تاريخ البشرية جميعه . ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى . . نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ . ولكن لم يحدث قط أن تجمع مثل ذلك العدد الضخم ، في مكان واحد ، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة"[50].

وهذا الأمر – أمر هذه الفئة – هوما يجب أن يستلهمه المؤمنون إذ إن هذه الظاهرة " ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها" [51]. وحقيقة أن الله سبحانه يرسل إلى البشرية رجلاً فرداً ليقودها من ظلماء الجاهلية إلى ضياء الحق لا دلالة لها على أن هذا هو المنهج الذي تسير عليه حتميات التقدم ، فإنه لو كان ذلك هو المنهج لكان وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[49] المصدر السابق
[50] المعالم ص 11
[51] معالم في الطريق ، الفصل الأول ص 11

لازم لانتشار الدعوة ، ولكان هذا أمرا خارجا عن نطاق القدرة البشرية إذ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم – بأبي هو وأمي ونفسي - بشر يموت كما يموت البشر ، والله سبحانه لا يكلف المؤمنين بالنهوض ويأمرهم بالاستعلاء ثم يحرمهم الأداة اللازمة لذلك النهوض.

يقول الأستاذ سيد: " لو كان وجود شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتميا لقيام هذه الدعوة ، وإيتائها ثمراتها ، ما جعلها الله دعوة للناس كافة ، وما جعلها آخر رسالة ، وما وكل إليها أمر الناس في هذه الأرض ، إلى آخر الزمان . ." [52] .

إذن فإن أمر النهوض بالأمة موكول إلى الفئة المؤمنة ولا يرتبط بظهور رجل من الرجال ليخرج الناس من الظلام إلى النور .

قلنا إن الأستاذ سيد، إذن ، يرتقب ظهور تلك الفئة المستعلية بإيمانها، والتي يمكن أن تعلو حتى تقترب من جيل الصحابة الأبرار، وليس هناك ما يمنع ذلك. بينما يرجو الأستاذ محمود شاكر أن يظهر رجلٌ من بين الناس، يشعر بشعورهم ويألم لألمهم ويكون هو المنقذ المنتظر والأمل المرتقب.

والحق أنّ الشيخ جعفر شيخ إدريس – أطال الله عمره – لم يأت بدليل شاف على ما افترضه[53] من أنّ سيدا رحمة الله عليه يرى إمكان أن يأتي جيل مماثل لجيل الصحابة، بل إن كلّ ما ذكره الأستاذ سيد أنّ جيل الصحابة لم يتكرر في الواقع العملي، وأنّ غياب شخص رسول الله صلى الله عليه وسلّم لا يمكن أن يكون هو العنصر الأوحد في هذه الظاهرة، وهذه المقدمات لا يلزم عنها أنه يمكن أن ينشأ جيلُ مماثل للصحابة، وهو مالم يصرّح به الأستاذ سيد، بل أظن أن المقصود هو أن إيمان الصحابة واستعلاءِهم هو العنصر الحاسم في عدم تكرار جيلهم، ولكن مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يتكرر، وبالفعل لم يتكرر ، لأنه مرتبط بما استقوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن لا يمتنع أن يخرج جيل قريب من أولئك المصطفين من الناس طالما أنّ الكتاب والسنة محفوظان الى يوم القيامة. ولتقرأ إن شئت فصل "جيل قرآني فريد" فلن تجد فيه كلمة واحدة يدّعي فيها المؤلف أن جيل الصحابة، الجيل المميز الفريد على حدّ

[52] ولا نغفل هنا عن ذكر ما كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس مدّ الله في عمره في كتابه "نظرات في منهج العمل الإسلامي" عن هذا الموضوع وقد كان موفقا فيما كتب إلا في بعض النقاط التي تخصّ موضوع تعليقه على الأستاذ سيّد في أن الأمة الإسلامية إنقطع وجودها . ." فإن هذه النقطة تحتاج إلى مزيد من التحقيق.

[53] "معالم في منهج العمل الإسلامي"، الشيخ جعفر شيخ إدريس

قوله، يمكن أن يتكرر تكرر **المثليّة** ، وهذا هو مربط الفرس، المثلية ، ولكن تكرّر الجيل الذي يعلو على الأجيال ويكون من جيلٍ "أمثل" كما في حديث "ثم الأمثل فالأمثل" فهو ما لا يمتنع عقلا ولا شرعاً.

منهاجان ظاهرهما الاختلاف والتضاد ، إلا إنهما فيما أحسب، ليسا بهذا القدر من التباعد والتجافي، بل إنهما يتباعدا حتى نظنّ إنهما ضدان لا يلتقيان، ويتقاربا حتى نظن أنهما توأمان لا يكادان يختلفان. وإليك شرح هذه الجملة بما فتح الله سبحانه عند التأمل في كلا المنهاجين، وفي شخصية صاحبيهما، إذ إن المنهج لا ينفصل عن صاحبه .

ومفتاح ذلك الأمر في أن "الرجل" و "الفئة" كما يسميها سيد رحمة الله عليه، هما خليط بعضه من بعض، فالرجل الذي يرتقب إمامنا محمود شاكر ظهوره لا يخرج إلا في فئة علت بنفسها وارتفعت بإيمانها حتى تنبت مثل هذا الرجل. ثم إنه يتميز بصفات شخصية كريمة تجعل محله القلب من تلك الفئة. وهو يعرف مشكلاتها ويعيش ثقافتها ويكتوى بآلامها فهي منه وهو منها. ومن كانت هذه صفاته لا يكون إلا قائدا مقدّما في هذه الجماعة، يفخر بها وتفخر به.

ثم إن الفئة التي تتربى على معالي الأخلاق والشرف والتضحية والكرامة، وكلّ ما يقدمه الإسلام لأبنائه من علوّ، لابد لها من قائد يقود مسيرتها، إذ إنه لا جماعة بلا أمير، كما إنه لا جسد بلا رأس، فحين تنضج الجماعة وتصل إلى مرتقاها الأعلى فلابد أن تتخذ لها رئيساً مقدماً تسلمه قيادها ليحدوها إلى ما شاء الله لها من قيادة البشرية إلى خيرها وفلاحها. ولا نحسب أن سيداً قصد إلى أنّ هذه الفئة التي يرتقب ظهورها لا تتخذ لها رئيساً قائداً، فإن هذا مما يخالف قواعد الاجتماع ومبادئ العقل جميعا.

إذن ، فإن المنهاجين يلتقيان، وإن ظهر إنهما يبدآن من نقطتين متباينتين. "الرجل" لا يظهر إلا من "فئةٍ" يصلُح أن تنبت فيها القيادة، و"الفئة" لا تتقدم دون أن تتخذ "رجلا" قائداً. وافتعال "الرجل" لا يصلح أن تقوم عليه أمة، ومن هنا فإن أمتنا لا تزال جاهدة في سعيها إلى أن تجد الرجل المناسب لقيادتها، كما أن أمة لا ترتقي بنفسها حتى تتمخّض عن رجل صالح بكل معاني الصلاح، لن يكون من نصيبها أي تقدم أو فلاح.

ولهذا فإن أمتنا أمامها طريق شاق لتنشأ فيها فئةٌ ينشأ منها رجل، أو ينشأ فيها رجل يقود الفئة المستعلية، أيهما تختار، فهما أمران متحدان في المنتهى، وإن اختلفا في المبتدأ.

ثم إن المتأمل في معالم شخصية سيدٍ رحمة الله عليه، وتجربته في العمل الإسلامي التي أثمرت، على قصرها، أشجارا يافعة في العمل الإسلامي وأحدثت ظلالاً مباركة جنّبت الكثير من أبناء العمل الإسلامي لوافح الشرك وهجير البدع، وجدها قد اختلطت منذ بدايتها بتجربة "الإخوان المسلمون" التي كانت، ولا زالت ، تعيش منهج "الرجل" القائد الذي تمثلته في شخصية حسن البنا رحمة الله عليه، إلى حدّ يقرب من التقديس ويرفع مكانة الرجل إلى من لا يجوز عليه الخطأ أو المراجعة. ثم نجد سيداً وقد خالف الإخوان نظرياً وحركياً تمام المخالفة، ولم يقنع بما قدّموه من مناهج بعد رحيل القائد "الرجل"، وهذا مما لا شك فيه، كان له أثر حاسم على اختياره مذهباً يلقي بتبعة التقدم على عاتق "الفئة" المؤمنة لا على الرجل الفرد.

كذلك فإن الله سبحانه قيّض لسيد رحمه الله فئة من الرجال المخلصين الصابرين العاملين [54] ممن تتلمذوا له وأخذوا عنه ولازموه سنيه العجاف في السجن والحبس ، فرأى فيهم أملا منشودا ولواءاً معقوداً ، وكانت تلك الفئة [55][7] ، معه وبه، هي طليعة الفئة المؤمنة التي رأى حبال النجاة بها موصولة وبشائر الخير بنواصيها معقودة. ولا شك أنّ هذا التمازج بين الأستاذ وطلابه قد صاغ توجهاته، وهيئ له تبني هذا الاتجاه، فإن واقع الحال له قوة مؤثرة على الفكر الحركي واتجاه النظر، وكأن حركة الفكر وفكر الحركة قد تمازجا لينشأ عنهما مذهب وليد، هو مذهب "الفئة المؤمنة" المرتقبة في حالتنا هذه.

ثم إذا تأمل الناظر في شخصية إمامنا وإمام العربية محمود شاكر، وجده قد تفرّد عن الأخلاط وابتعد جّلّ عمره عن الموافق والمخالف، ولزم بيته سنين عدداً، يعرف عنها القاصي والداني، ولا مجال لسرد تفاصيلها. وهو مما لا شك فيه يقوّى اتجاه النظر إلى ذلك الفرد الذي تجتمع فيه كلّ ميّزات عصره ومحاسن أخلاق قومه، ما يؤهله لأن يكون القائد المقدم والسيد المطاع، خاصة إن كان صاحب هذا النظر هو من طبقة علّامتنا الإمام من حدة الذكاء وشدة النباهة وقوة النفس، فهو يتمثل هذا الرجل، في خلوته التي طال أمدها، ويرى فيه صورته إن اكتملت وهُيّئ لها أن تخرج إلى الناس لتنفعهم وتوجّههم لما فيه صلاحهم.

---

[54] منهم على سبيل المثال الشيخ عبد المجيد الشاذلي والشيخ مجدى عبد العزيز والشيخ أحمد عبد المجيد رحمهم الله جميعا، وكانوا من الأحياء وقت كتابة هذا البحث، تقبلهم الله في الصالحين.

[55] وقد أسعدني الله سبحانه بأن قضيت سنوات من العمر رفيقاً لتلك الفئة وهو أمر أسأل الله أن يمهدّ في العمر حتى أدون منه ما بقي مما حفظته الذاكرة المتداعية

إذن فإن مذهب الرجلين هو قطعة من حياتهما، قد اختلطت بفكرهما، وتمازجت بتجربتهما العملية، فأنتجت ما رأيت من مذاهب يهتدى بها رجالات العمل الإسلامي في هذا العصر حين يرتبون لأمتهم ما يرتفع بها عن حضيض التخلف وبلاء التبعية.

نسأل الله أن يفسح لنا من العمر ما نتقصى فيه هذا المذهب في النظر إلى فكر الأئمة واستخراج مكنونات أصولهم فنربط الفكر وحركته بمعالم الشخصية وكُنْه النفس، وهو المذهب الذي ارتضيناه في كتابنا "مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم"[56] منذ قرابة ثلاثين عاما مضت.

رحم الله الإمامين، فإن الأمة قد فقدتهما في زمن – يعلم الله - هي أشد ما تكون حاجة إليهما.

---

[56] الأعمال الكاملة، د طارق عبد الحليم المجلد الأول ص 233

القطبية .. والفكر التوحيدي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله صحبه وبعد

سألني أحد الأبناء الأحباء عن "القطبية"، ما هي، وما حقيقتها، وهل هي جماعة موجودة على الأرض، فإن كانت فما تاريخها؟

وحتى نجيب على هذا السؤال، يجب أن تعود بنا الذاكرة إلى فترة ما بعد إعدام الشهيد بإذن الله سيد قطب، في عام 1966، ومحمد اسماعيل هواش وعبد الفتاح اسماعيل. وقد كان سيد رحمه الله على علاقة بعدد من الطلاب، خاصة طلاب الهندسة، يجتمع بهم فيدرسون عليه المعالم والظلال، وذلك في الفترة بين إطلاق سراحه بعد قضية 1954 [57]، وبين إعادة محاكمته عام 1966، وهي الفترة التي ترعرع فيها عمله الإسلاميّ الفكريّ العقائدي، وأخرج المعالم والظلال منقحاً. ثم خرج في عام 1964، وفيها نشأت فكرة جماعة أطلقوا عليها جماعة 1665، وكان على رأسها الأستاذ سيد، ومن طلابه عبد المجيد الشاذلي ومجدي عبد العزيز وأحمد عبد المجيد، ومصطفى الخضيري رحمهم الله جميعا، والشيخ محمد المأمون أطال الله عمره في الخير. وكان الشيخ الشاذلي قد تخرج من كلية العلوم – قسم كيمياء - عام 1956، وكان له نشاط ديني مع جماعة الإخوان. حتى التقى بالشهيد رحمه الله، بعد أن تبلورت الخلافات العقدية بين الإخوان وبين الأستاذ سيد رحمه الله، ودارت رحى الصراع داخل سجن طرة بين الإخوان وعلى رأسهم مأمون الهضيبي، وبين تلامذة سيد قطب وعلى رأسهم منظرهم الشيخ الشاذليّ. وقد أنتج هذا الخلاف كتاب "دعاة لا قضاة" من جانب الإخوان، كما أنتج كتاب "حد الإسلام وحقيقة الإيمان" للشيخ الشاذليّ، وشتان بين الثرى والثريا!

أمّا عن إسم القطبية، فهو اسم أطلقته المخابرات على تلك الجماعة التي عملت معه بعد إطلاق سراحه عام 1964، ومن حوكموا مع الاستاذ سيد، وغرضهم كما هو معروف من تلك التسميات، أن ينسبوا الفكر الذي يحملونه لشخص، لا للإسلام ذاته، كالوهابية.

وتلك الجماعة، لا تحمل فكراً غريبا ولا يختص به الأستاذ سيد، بل إن كلا من الأستاذ سيد، المنظر الأول في الاتجاه السنيّ في شرقنا العربي هذا القرن، في باب التوحيد والحاكمية، في الظلال والمعالم، أو الشيخ الشاذلي، وهو المنظر الثاني، الذي وضع للظلال والمعالم الأساس

---

[57] التي أعدم فيها من الإخوان العالم عبد القادر عودة ويوسف طلعت ومحمد خميس حميدة وغيرهم.

الأصوليّ وأرجعه لبنيات العقيدة السلفية بقوة وحجة، خاصة كتابه "حد الإسلام وحقيقة الإيمان"، بعد أن كانا يهاجمان من قبل الإخوان والنظام أن كتابيْ سيد رحمه الله، المعالم والظلال، هما كتابا أدب لا غير، لا يستندان إلى أدلة الشرع المُحكمة. ثم لم يأت من بعدهما من له أي بصمة في موضوع التوحيد، إلا النقل وإعادة الترتيب.

وهذا الفكر، هو الامتداد الطبيعي لدعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن عبد الهادي وابن رجب، وقبلهما أعلام السنة في القرون الثلاثة الأولى. كما إنه خرج من ذات المَعين الذي خرجت منه أعمال الإمام المجدد أبو الأعلى المودودي، صاحب السبق في تدوين معالم التوحيد وتجديد رسومه قبل الأستاذ سيد، في القارة الهندية. فليس هناك قطبية بمعنى الفكر، ولا قطبية بمعنى الحركة، بل كانت، واستمرت بعد إطلاق سراح الشيخ الشاذلي رحمه الله وإخوانه، وتأسيس ما عُرف بجماعة إحياء الأمة.

وقد عاشرت الشيخ الحبيب الشاذلي، والحبيب مجدي عبد العزيز رحمهما الله في عام 1976 عشرة قريبة متواصلة، كما التقيت بغالب إخوانهم في مناسبات متعددة بعدها، ولا زلت على اتصال بالحبيب الشيخ محمد المأمون أطال الله عمره. ولكن علاقتي بالشيخ الشاذلي والشيخ مجدي عبد العزيز، كانت علاقة خاصة جداً، وحميمة جداً. قضينا عدة سنوات بحثا ودراسة ومناظرة، في مدينة نصر، نلتقي كل أسبوع مرات لعدة ساعات، وكان لي بعض الأحباب الزملاء، منهم الشيخ محمد عبد الهادي المصري، وغيره. وقد دونت كتاب "الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد"[58] عام 1978، وكتاب "فتح المنّان في بيان حقيقة الإيمان"[59] عام 1979، ولم يرهما الشيخ الشاذلي حيث سافر إلى السعودية قبل صدورهما، على ما تسعف به ذاكرة ابن السبعين من العمر. وكنت على اتصال تليفوني به طوال فترة خروجي من مصر عقب أحداث السادات.

وقد كان الشيخ الشاذلي رحمه الله يقول "الشيخ أحمد عبد السميع هو قلبي، والشيخ طارق عبد الحليم هو عقلي". وهذا قول أفخر به كثيراً [60].

---

[58] وله طبعات متعددة، كما يجده القارئ على موقعي https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/72839 كما سيصدر إن شاء الله في المجلد السادس من الأعمال الكاملة للعبد الضعيف إن شاء الله.

[59] وقد طبع عشرات المرات، انظر مجموعة العمال الكاملة د طارق عبد الحليم المجلد الأول ص

[60] إلا أن البعض، ممن لم يعرف حقيقة علاقتنا وما كان بيننا في تلك الفترة، نسبني إلى تلامذة الشيخ رحمه الله، وهو ما أعتز وأفخر به، لكن الأمر لم يكن على هذا الوضع حقيقة، فقد كنت وقتها في الثلاثين من العمر، فكان الأخ الأكبر لنا. وقد كنت،

الحق أن هذه الجماعة التي وصمها النظام والإخوان بالقطبية، هي الرعيل الثاني في عملية إنشاء الفكر التوحيديّ وترسيخه، بعد أن وضع أسسه من قبلهم الرعيل الأول في القرن الماضي سيد قطب والمودودي بالذات ثم فضل رشيد رضا، وما دونه شراح كتاب التوحيد لمحمد ابن عبد الوهاب، بناء على كتب السلف من أهل السنة الجماعة، وبصمة الشيخين العلّامتين أحمد ومحمود شاكر. وكان الشيخ الشاذلي رأس الرعيل الثاني هو من أصل هذا الفكر ووصله بالأصول، وهو عمل تجديدي لم يُسبق اليه. وليس لأحد جاء بعده أيّ تجديد في هذا الباب "التوحيد" فكلهم عيال على ما كتب الرعيل الأول، ثم ليس منهم من حمل تجديد الشيخ الشاذلي كما حمله العبد الفقير من بعده. إذ كلّ من كتب فيه من بعد، فإنما هو في صيغة دراسية، ونقولا من كتب السلف وكتب الرعيل الأول الذين ذكرنا. لذلك تجد أن كبار من له بصمة في الفكر الإسلاميّ بعد الرعيل الأول لم يكتبوا في موضوع التحاكم، كتابات منفصلة، إلا خلال أبحاث معينة تستلزم قدراً من ذكر الموضوع، مثل ما كتب العلامة رفاعي سرور والشيخ الحكيم د أيمن الظواهري، فليس لهم كتاب محدد في موضوع التوحيد. فالشيخان لم يكونا ناقلين، بل صائغين ناقدين. ومع الأسف لا يعرف أبناء الحركة الإسلامية قليلا ولا كثيرا عن هذا الرعيل الذي حمل مهمة تأسيس وترسيخ وتقعيد وتأصيل الفكرة التوحيدية بعد الهجمة العلمانية عقب الحرب العالمية الأولى، فوقفوا لها بالمرصاد. إنما اقتصر أبناء هذا الجيل، خاصة خارج مصر، على من أعاد كتابات ونقول في موضوع التوحيد، دون تجديد فيها، إذ بعدما كتب أبناء الرعيل الأول، وأصل وقعّد أبناء الرعيل الثاني من جيل الأسماء التي ذكرت في الستينيات والسبعينيات، لم يبق في هذا الأمر "التوحيد" وجهة تجديد لأحد. لكن جهل

والشيخ عبد الهادي قد عملنا معا كثيرا لتكوين اتجاه عقدي مبنيٍ على فكر شيخ الإسلام والمودودي ومحمد بن عبد الوهاب وسيد قطب، قبل أن نلتقي بالشيخ الشاذلي رحمه الله، وكان يُطلَق علينا "قطبيو مدينة نصر" وهو ما أطلقته علينا الإخوان كذلك خاصة، بعد أن أصدرتُ كتاب الجواب المفيد، ووصمونا بالتكفيريين كعادتهم. وقد كان أثر لقائنا بالشيخ الشاذلي في قولبة هذا الاتجاه قويا بحيث صار خارجا من مشكاة واحدة، أثراً كبيرا وفضله علينا عميما ولا شك، وقد استفدت كثيرا من كتبه وحديثه، ومكنني ذلك من مراجعة الموافقات والاعتصام، وأصول الفقه عامة بعين أبصر وأخبر بمواضع النظر. وقد شرحت وأضفت على بعض ما كتب الشيخ من قواعد في "حدّ الإسلام" في مجموعة أبحاث أسميتها "أبحاث في التوحيد" لتكون دروسا تعليمية للدعاة خاصة. كما نسب البعض بالخطأ كتابي "الجواب المفيد" للشيخ الشاذلي، لكنه أنكره علناً، وليس في ثبت كتبه أصلاً. كما حسب البعض أن كتابي "فتح المنان في بيان حقيقة الإيمان" من وضع الشيخ الشاذلي، وهو خطأ محضٌ، لاشتباه العنوانين في كلمة حقيقة الإيمان. وهو لم ير كتابي إلا بعد سنوات عدة من إصداره، لكن كما بينت، المشكاة واحدة.

الأجيال التي تبعت الرعيل الثاني بتاريخ الحركة ككُل، جعلهم محدودي النظر، ينسبون الفضل لغير أهله في كثير من الأمور.

ومن المهم هنا، في هذه الأحاديث المتعلق بالتوحيد ودراسته، أن نذكر أمراً يتعلق بالسنن وبدورة التاريخ. فإن التوحيد كما هو معلوم، دين الأنبياء جميعا، ثم هو الركن الأساس في دين الإسلام، بل هو دين الإسلام مجملاً. فترى القرآن نزل به مفصلاً والسنة بينته وشرحت مجمله. ثم استقر تطبيق التوحيد في القرن الأول، وبعد إقامة دولة الخلافة الإسلامية، وتركّز الاهتمام بجمع الحديث الشريف. ثم حين بدأت الهجمة على توحيد الربوبية، في منتصف القرن الثاني، انتعش الردّ على الفلسفات الواردة والتوجه الاعتزاليّ المستحدث. لكن لم يكن كبير اهتمام بقضية توحيد العبادة والتحاكم من حيث استقرارها ورسوخها. واستمر ذلك حتى جاء التتار، وجاءت معهم فتنة الحكم بالياسق وبغير ما أنزل الله، فكان رد فعل اهل السنة متمثلا في كتب ابن تيمية وابن القيم وتلامذتهما، في باب توحيد العبادة والتحاكم أساساً. كما استمر ردّهم على أهل البدع في الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية. وبعد أن انزاح كابوس التتار ودخلوا في الإسلام، توارت قضية التحاكم مرة أخرى من الكتابات السنية، حتى عادت إلى السطح مرة ثانية، في عهد الإمام محمد ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب، فتركز تجديده على توحيد العبادة من الناحية الشعائرية أصلاً، والتشريعية فرعاً، حيث كان الشرك في الشعائر على أيامه في الجزيرة هو الهمّ الأول للموحدين. ثم برزت قصية توحيد العبادة في جانبها التشريعيّ كأقوى ما ظهرت في تاريخ الإسلام منذ نزول القرآن، عقب الاحتلال الاستعماري لبلدان الشرق الأوسط، وتغيير مرجعيات الحكم إلى القوانين الوضعية، فبدأ من لقّبْتهم هنا بعلماء الرعيل الأول في القرن الماضي، عملهم في بيان توحيد الحاكمية والعبادة. فتاريخ التدوين في بابيّ التوحيد الربوبية والعبادة كالمنحنى، تراه يعلو في جانب التحاكم في فترات التغيير التشريعيّ كأيام التتار ثم أيام العلمانية، وتراه عالياً طوال تاريخنا من حيث استمرت البدع النظرية كالاعتزال والإرجاء والتصوف مستمرة على الدوام.

ففي هذا الشأن، بيان التوحيد، ليس هناك، بعد حلقتي أبناء الرعيلين في عصرنا الحديث، حلقة ثالثة برزت وقدمت جديداً بعد تأصيل وتقعيد الشيخ الشاذلي لما دوّن أبناء الرعيل الأول من الأعلام. وما كتبه البعض من بعد، ما هو إلا إعادة عرض ونقل لنصوص وآيات التوحيد مما دوّن الرعيل الأول من الأعلام .

هذا بعض مما في صندوق الذكريات ... رزقنا الله الإخلاص في طاعته.

والله المستعان..

د طارق عبد الحليم

1صفر 1437 - 2 نوفمبر 2016

سيد قطب ومجلة "الإسلاميون"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

ليس من عادتي التعرض لصغار الكتاب، من ناشئة عصر النت، إذ ما أكثرهم اليوم، وما أجهل أكثريتهم من الأشبار والأفتار! فمن العبث وضياع الوقت أن نبذل جهدا في تتبع تلك الفقاعات المتطايرة، تريد أن تكون جزءاً من تركيبة الجو الإسلاميّ، فيفقأها الضغط، أولا بأول.

لكن، يأتيني على البريد الإلكتروني نشرة من مجلة "الإسلاميون"، وهي مجلة، كما قلت سابقا، إخوانية الروح والمنهج، لا يكتب فيها إلا من طُبع، أو تطبّع بالفكر الإخواني. فرأيتها تستكتب رجلا اسمه شريف طه. والمعذرة في إنني لا أعرف عن الرجل شيئا، أفقيه هو، أم أصوليّ، أو صاحب حديث، أم متخصص في السيرة النبوية أو التاريخ أو الفرق الإسلامية! إنما وجدته "ناقدا هزيلا متهافتا جدا" من الدرجة الخامسة، لفكر سيد قطب رحمه الله.

وبالبحث السريع، وجدته من خبثاء حزب الزور، وأتباع برهامي، ممن ارتدوا على أدبارهم من وراء السيسي! ويكفي معرفة أن هذا الفقاعة (شكلا وموضوعاً) قد شكر محمد إبراهيم سفاح رابعة والنهضة على قتل أربعة آلاف مسلم ومسلمة، رجالا وأطفالاً، لينتصر للسيسي!

والأعجب أن إعلام الملحد السيسي يتهم أبناء رابعة والنهضة بأنهم إخوان، بينما هذا الفقاعة الذاهلة عن دين الله، يمدح القرضاوي رأس الإخوان الشرفيّ، ويكتب في مجلة إخوانية .. جهل وتناقض وخبث ونفاق أكبر ليس له مثيل..

هل يستحق هذا المخلوق أن نتتبع ما يكتب بنقد؟ لا، فإنه أقل قيمة من أن نوجه إليه نظر، إلا بالتقريع. فهو يأخذ على معلم سيد سيده، سيد قطب رحمه الله، أنه يكفّر الناس، بينما لا يستحي هو أن يرى قتل الآلاف من الأبرياء، المستمر حتى اليوم، إلا مما يُشكر لإلهه السيسي، لعنهما الله معا...

هؤلاء، من قامة سيد قطب رحمه الله، كدابة الأرض من سيدنا سليمان، لم يجدوا متنفسا ينقدونه إلا بعد موته .. لكن الرجل أكبر من أن تمسه دواب الأرض الزاحفة البرهامية المنكرة لحاكمية الله على البشر، الراضية بالحاكم الطاغوت الذي يفرض أحكام البشر، المشجعة له والداعمة لمذهبه .. فبعدا للقوم الكافرين.

د طارق عبد الحليم

سيد قطب والقرضاوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

الشيخ يوسف القرضاوي شيخ جليل له مكانته من العلم والدعوة في أيامنا هذه[61]، خاصة بعد أن رحل الكبار من أمثال الشيخ شاكر وغيره من قبله من أمثال الشنقيطي والدوسري وغيرهما من العلماء. ولكن الشيخ القرضاوي كغيره من العلماء متأثر بخلفيته العلمية وبالبيئة الدعوية الإخوانية التي تربى فيها، وكان لها أكبر الأثر في صياغة فكره، ودخول شبه الإرجاء عليه. ولسنا بصدد الحديث المفصّل عن القرضاوي، ما له وما عليه، فإن له الكثير من الفضل، كما أن له الكثير من الزلات التي من آخرها إباحة القروض الربوية للمقيمين بالخارج لشراء منازل سكنية، غير ترخصه في الكثير من المحرمات حتى عُرف عنه من قديم أنه صاحب كتاب "الحلال والحلال" في الإسلام! وهذا ثمن يدفعه من يتعرض للجمهور على شاشات التلفاز ويصبح من الشخصيات العامة، فيفتي بما يرضى الناس ويأمن أن يتقبلوه وأن ترضى به حكوماتهم. وهذه حقيقة يعترف بها القرضاوي نفسه حين يقارن نفسه بعلماء أجلاّء ممن ارتقوا بأنفسهم عن مثل تلك الترخصات من أمثال الشيخ الجليل عالم الاقتصاد الفقيه على السالوس رئيس القرضاوي في مجمع الفقه الإسلامي بقطر.

ومما تعرض له القرضاوي فكر سيد قطب رحمة الله عليه، وقد نقده بفكر إخواني إرجائي محض، في سلسلة بعنوان "مع الأستاذ سيد قطب: محطات تاريخية ووقفات نقدية"! انظر إلى قوله "الأستاذ" إذ يستكثر على صاحب أضخم تفسير، لا هو ولا عشرة مثله معه دونوا مثل الظلال، أن يكون الرجل شيخاً! وبالطبع، تلقف هذا الكلام من طلبة الإرجاء ومحبيه من عديمي العلم وصغار الدعاة ومرضى الإرجاء، فراحوا يروجونه على صفحات مواقع يقرأها الناس، ويرون اسم القرضاوي، الشهير بضيف الجزيرة، عليها فيسبق إلى عقولهم التصديق بها أو بالأحرى عليها، لمكانة اسم القرضاوي في هذه الأيام، ولقلة الحصيلة العلمية القادرة على النقد والنظر.

---

[61] كان ذلك منذ أعوام، قبل أن يعتزل الشيخ القرضاوي، ويتولى أحمد الريسوني محلّه، فإذا به طامة أشدّ وأنكى والله المستعان.

وإننا نرى أن سيدا رحمة الله عليه كان من أشفّ الناس في عصرنا هذا في فهم التوحيد وأخلصهم في تأدية معناه، مرافقا في ذلك السيد المودودي والشيخ الدوسري وغيرهم من أجلة علماء السنة في عصرنا، ممن حصّنهم الله ضد جراثيم الإرجاء، ومن قبلهم الإمام محمد عبد الوهاب، ومن قبلهم شيوخ السنة والجماعة كابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن رجب ثم سابقيهم في العصور الثلاثة الفضلى، إلا إننا نرى أن سيداً قد جاوز الصواب في بعض ما كتب، قبل أن يفئ ويرجع عن زلاته، إمّا مدفوعاً بقلم الأديب الذي يتقدم عنده اللفظ لتأدية المعنى وإن شطّ عن القصد، أو لخلل في فهم بعض التنزيل، كما حدث في تعليقه على بعض آيات الصفات، ونحن نصدر في تأييدنا ومخالفتنا لسيد عن قناعة عميقة حقيقية، ولإيمان صادق بمقولة أن "كلٌّ يُؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب المقام النبوي عليه أفضل الصلاة والسلام"، مخالفين بذلك أدعياء العلم من أتباع القرضاوي أو الألباني أو غيرهم ممن يدعى الإنصاف وعدم التقليد ظاهراً، وهو هالك فيه حقيقة.، بل هم أول من تنطبق عليهم تلك القاعدة الحكيمة، فيُترك كلامهم عن الشيخ سيد رحمه الله.

وقد جاء تعليقي التالي، حيث وضعت نص القرضاوي بين قوسين، وجعلت تحته خطاً لتمييزه ، ثم نقلت كلام أحمد ومحمود شاكر بالخط الثقيل لأهميتها:

"وفي هذه الفترة بدأ سيد قطب يقترب من الإخوان، ويرى بعينيه نشاطهم والتزامهم، وما بينهم من رباط وثيق، وإخاء عميق، وما يتميز به كثير منهم من وعي دقيق، وشعور رقيق، وكان المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي يصطحبه معه في رحلاته، ليرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويحكم بعد ذلك بعقله، ويختار لنفسه.

وقد اختار بملء إرادته الانضمام إلى دعوة الإخوان، ولا سيما بعد أن خاب ظنه في رجال الثورة، الذين علق عليهم في أول الأمر آمالا وأحلاما، فتبخرت وضاعت، كما تبخرت أحلام الشاعر العاشق الذي قال:

كأني من ليلي الغداة بقابضٍ   على الماء خانته فروج الأصابع

وأحيل القارئ إلى ما ذكرته في الجزء السابق عن سيد قطب وانضمامه إلى الإخوان، وتسلمه رئاسة قسم نشر الدعوة في الجماعة، ورئاسة تحرير مجلتهم، إلى أن دخل معهم في محاكمات محكمة الشعب وحكم عليه بعشر سنوات."

مما لا شك فيه أن سيدا بعد أن كان من الأدباء الأفذاذ وإن لم يتخذ الإسلام مرجعا له بعد، كان قد بدأ عملية التحول بعد أن انفتحت عيناه على حقيقة الإسلام وعظمته، وقد حدث هذا تدريجيا وبشكل عفوي وكانت الإخوان هي الجماعة الوحيدة على الساحة التي تعرض الإسلام كبديل سواء صحت توجهاتها كلها وكانت الأمثل أو مع تجاوزاتها التي رآها من بعد واختار بعد التعمق في الإسلام والتحلي بمعاني التوحيد أن ينفصل عنها. والشيخ القرضاوي يصور سيد أنه بعد أن انتمى إلى الإخوان ووصل إلى ذروة العمل الجهاديّ بهذا الانتساب قد رجع القهقري وانفصل عن الإخوان لتغير غير مرضٍ منه في الفكر الذي دفعه إلى التكفير وما إلى ذلك مما سأعرض له لاحقا، والحق أن سيدا رحمة الله عليه دخل في الإخوان كمرحلة من مراحل رقيه الفكري أولا ولأنه لم يكن هناك بديل لها ثانيا، ثم استمر في الترقي إلى أن أدرك ما عند الإخوان من خلل عقائدي وفكر ارجائي، فانفصل عنها وتعداها إلى مرحلة جديدة كما سنبين بعد. فسيد تحرك من أسفل إلى أعلى ثم إلى أعلى الأعلى، لا كما يصور القرضاوي أنه تحرك من أسفل إلى أعلى الأعلى ثم انقرض إلى الأسفل مرة أخرى!

"وهذه مرحلة جديدة تطور إليها فكر سيد قطب، يمكن أن نسميها "مرحلة الثورة الإسلامية"، الثورة على كل "الحكومات الإسلامية"، أو التي تدعي أنها إسلامية، والثورة على كل "المجتمعات الإسلامية" أو التي تدعي أنها إسلامية، فالحقيقة في نظر سيد قطب أن كل المجتمعات القائمة في الأرض أصبحت مجتمعات جاهلية.

تكون هذا الفكر الثوري الرافض لكل من حوله وما حوله، والذي ينضح بتكفير المجتمع، وتكفير الناس عامة "

سبحان الله العظيم! كذب وافتراء على الرجل! فهو لم يكفّر الناس عامة في أي نص من نصوصه وإنما هي استخراجات مريضة مغرضة تريد أن تسلب الرجل مكانته لضآلة حجمها بالنسبة اليه رغم اسباغ صورة الموضوعية والإنصاف في مثل قولها بأنه "وهو على كل حال مخلص في توجهه، مأجور في اجتهاده، أصاب أم أخطأ، ما دام الإسلام مرجعه، والإسلام منطلقه، والإسلام هدفه !!"

إن سيدا ـ لمن أراد أن يتعلم ـ إنما قال إن المجتمعات الحالية التي لا تحكم بشرع الله هي مجتمعات جاهلية وأن الناس الذين يرضون بهذا الوضع ويشجعونه ويعملون تحت رايته

لتحقيق أغراضه إنما هم خارجون عن الولاء لله كافرون بشرعه، وهذا كله صحيح لا شائبة فيه فإن قاعدة التحاكم لله تفرض أن الشرع في حياة المجتمع المسلم يجب أن يستمد من الله سبحانه، أو هي الجاهلية لا ثالث لهما، وأن من يسلم روحه ونفسه لأمثال الحاكمين بغير شرعه عنادا واستكبارا، ويعمل بعملهم وينصرهم على الدعاة إلى الله، هو من نحلتهم، ومن حذا حذوهم فهو منهم، وآيات الولاء في القرآن ناضحة بهذا المعنى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولكن سيداً لم يكفر الأفراد الأعيان من هذه الأمة فردا فردا وحاشاه، وعلى من قال بهذا أن لا يلقى بالقول على عواهنه، بل أن يأتي بنصوص محكمة لا تحتمل الشبهة من كلام الرجل تنص على التكفير العام. وقد تابع القرضاوي على مثل هذا القول لفيف من أنصار الإسلام "الشيوعيّ" أو الليبرالي من أمثال د. محمد عمارة الذي رمى سيداً بنفس التهم من قبل.

ثم نكمل نقد القرضاوي:

"لأنهم "أسقطوا حاكمية الله تعالى" ورضوا بغيره حكما، واحتكموا إلى أنظمة بشرية، وقوانين وضعية، وقيم أرضية، واستوردوا الفلسفات والمناهج التربوية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية وغيرها من غير المصادر الإسلامية، ومن خارج مجتمعات الإسلام.. فبماذا يوصف هؤلاء إلا بالردة عن دين الإسلام؟"!

ماذا في هذا الكلام ما يستدعي علامات التعجب، إنما هي شبه الإرجاء دخلت على القرضاوي كما دخلت على بقية المنتسبين للإخوان من أن "القدرة التامة والإرادة الجازمة قد لا يتبعها عمل" كما قال بن تيمية. فإن العمل بالشريعة لمن هو قادر على العمل بها ومريد للعمل بها هو أمر لا يشك فيه إلا مرجئ يؤخر العمل عن الإيمان، وهو موضوع يطول شرحه في هذا الموضع. ولكنه مُبرَّر بأن الإخوان، كما أثبتنا في بعض ما كتبنا، أنهم مرجئة العصر الحديث. لذلك فالشيخ يعجب من أن من هذا حاله كيف يقول عنه سيد أنه مرتد عن الإسلام، سبحانك اللهم! وها هو نص ما قال أحمد شاكر في تفسير سورة المائدة في تفسير قوله تعالى "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"، وعن أثر ابن عباس وأبي مجلز التابعي أنه كفر دون كفر، أنقله هنا للفائدة:

قال أحمد شاكر: وهذه الآثار – عن ابن عباس – مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا من المنتسبين للعلم ومن غيرهم من الجرآء على الدين يجعلونها عذرا أو إباحة للقوانين الوثنية

الموضوعة التي ضربت على بلاد الإسلام. وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه فيما يصنع بعض الأمراء من الجور فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة عمدا إلى الهوى، أو جهلا بالحكم. والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء ليكون لهم عذراً فيما يرون من الخروج بالسيف. وهذان الأثران رواهما الطبري وكتب عليهما أخي السيد محمود شاكر تعليقا نفيسا جدا فرأيت أن أثبت هنا نص الرواية الأولى للطبري ثم تعليق أخي على الروايتين.

"فروى الطبري عن عمران بن حيدر قال: أتى أبي مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس فقالوا: يا أبا مجلز أرأيت قول الله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون؟ أحق هو؟ قال:نعم، قالوا: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون، أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: يا أبا مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله (يريدون الأمراء الظالمين من بني أمية) قال: هو دينهم الذي يدينون به وبه يقولون، واليه يدعون، فإن تركوا منه شيئا عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً، فقالوا لا والله ولكنك تفرق! قال: أنتم أولى بهذا مني (يعني أنهم هم الخارجين لا هو) لا أرى، وأنكم ترون هذا ولا تحرّجون" فكتب أخي السيد محمود بمناسبة هذين النصين:

اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة، وبعد، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله وفي القضاء في الدماء والأموال والأعراض بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام. فلما وقف على هذين الخبرين، اتخذهما رأيا يرى به صواب القضاء في الدماء والأموال والأعراض بغير ما أنزل الله وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها والعامل عليها. والناظر في هذين الخبرين لا محيص له من معرفة السائل والمسئول، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني الدوسي) تابعي ثقة وكان يحب عليا وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان من شيعة علي يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتزلت الخوارج، كان فيمن خرج على علي طائفة من بني شيبان ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل، وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس وهم نفر من الإباضية..... هم أتباع عبد الله بن إباض من الحرورية (الخوارج) الذي قال: إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك! فخالف أصحابه...

ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلكان، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عنه، ولذلك قال في الأثر الأول: فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا، وقال في الخبر الثاني: إنهم يعملون بما يعملون وهم يعلمون أنهم مذنبون"

وإذن، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعوا زماننا من القضاء في الدماء والأموال والأعراض بقانون مخالف لغير شرع الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلى حكم غير الله في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي له.

والذي نحن فيه اليوم، هو هجر لأحكام الله عامة دون استثناء وإيثار أحكام غير حكمه، في كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ....فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سنّ حاكم حكما جعله شريعة ملزمة للقضاء بها..

وأما أن يكون كان في زمان ابي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر جاحدا لحكم الله أو مؤثرا لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام (وهي حال اليوم من آثر أحكام الكفر على أحكام الإسلام) فذلك لم يكن قط، فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في بابهما، وصرفها عن معناها، رغبة في نصرة السلطان، أو احتيالا على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله، أن يستتاب، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله ورضي بتبديل الأحكام، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين" أحمد محمود شاكر" انتهى نص أحمد ومحمود شاكر جزاهما الله خيرا عميماً والجاهل بقدرهما عليه أن يسأل عنهما فهما علمين من أعلام الحديث واللغة العربية والتفسير لا يجاريهما أحد من أهل هذا الزمان ولا يكاد القرضاوي أن يقرض بعلمه طرف علومهما.

وانظر رحمك الله فهو يقول باستتابة من يتخذ هذه الآثار لنصرة السلطان ممن يدعي العلم (من أمثال بعض الجماعات الإسلامية في كتاب "دعاة لا قضاة" إذ استشهدوا بهذه الآثار

على الوجه الذي ذكره محمود شاكر) لا باستتابة السلطان إذ لا محل لإستتابته وحكمه معروف لمن له عقل." تفسير الطبري بتحقيق الشيخين، تفسير سورة المائدة آية 44.

"بل الواقع عنده أنهم لم يدخلوا الإسلام قط حتى يحكم عليهم بالردة، إن دخول الإسلام إنما هو النطق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وهم لم يفهموا معنى هذه الشهادة، لم يفهموا أن "لا إله إلا الله" منهج حياة للمسلم، تميزه عن غيره من أصحاب الجاهليات المختلفة، ممن يعتبرهم الناس أهل العلم والحضارة.

أقول: تكون هذا الفكر الثوري الرافض، داخل السجن، وخصوصا بعد أن أعلنت مصر وزعيمها عبدا لناصر، عن ضرورة التحول الاشتراكي، وحتمية الحل الاشتراكي، وصدر "الميثاق" الذي سماه بعضهم "قرآن الثورة"! وبعد الاقتراب المصري السوفيتي، ومصالحة الشيوعيين، ووثوبهم على أجهزة الإعلام والثقافة والأدب والفكر، ومحاولتهم تغيير وجه مصر الإسلامي التاريخي".

هذا إغراض وتلميح بما رماه به خصومه من ملحدي مصر من أن آراءه "المتطرفة" مرجعها إلى العذاب الذى رآه على يد النظام، لا إن آراءه تحمل في ذاتها حقاً! حيلة رخيصة للتخلص من مواجهة الموضوع ذاته، بتحويل النظر إلى ظروف صاحبه الصعبة وإلقاء ظلالٍ للشك على موضوعية الآراء من هذا الباب، ولكن هيهات هيهات، فهناك من هم متيقظون لهذه التكتيكات المغرضة، فأين النقد الموضوعي للجمل التي ذكرت يا شيخ قرضاوي؟ أين دليلك من الكتاب والسنة على عدم صحتها (عدا الحديث عن ظروف سيد في السجن وتجربته وعن ظلم عبد الناصر والثورة!!!)؟

هنالك رأى سيد قطب أن الكفر قد كشف اللثام عن نفسه، وأنه لم يعد في حاجة إلى أن يخفيه بأغطية وشعارات لإسكات الجماهير، وتضليل العوام.

"هنالك رأى أن يخوض المعركة وحده، راكبا أو راجلا، حاملا سيفه "ولا سيف له غير القلم" لقتال خصومه، وما أكثرهم. سيقاتل الملاحدة الجاحدين، ويقاتل المشركين الوثنيين، ويقاتل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويقاتل المسلمين أيضا، الذين اغتالتهم الجاهلية، فعاشوا مسلمين بلا إسلام!

وأنا برغم إعجابي بذكاء سيد قطب ونبوغه وتفوقه، وبرغم حبي وتقديري الكبيرين له، وبرغم إيماني بإخلاصه وتجرده فيما وصل إليه من فكر، نتيجة اجتهاد وإعمال فكر أخالفه في جملة توجهاته الفكرية الجديدة، التي خالف فيها سيد قطب الجديد سيد قطب القديم.. وعارض فيها سيد قطب الثائر الرافض سيد قطب الداعية المسالم، أو سيد قطب صاحب "العدالة" سيد قطب صاحب "المعالم."

ولقد ناقشت المفكر الشهيد في بعض كتبي في بعض أفكاره الأساسية، وإن لامني بعض الإخوة على ذلك، ولكني في الواقع، كتبت ما كتبت وناقشت ما ناقشت، من باب النصيحة في الدين، والإعذار إلى الله، وبيان ما أعتقد أنه الحق، وإلا كنت ممن كتم العلم، أو جامل في الحق، أو داهن في الدين، أو آثر رضا الأشخاص على رضا الله تبارك وتعالى.

ونحن نؤمن بأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل أحد غيره يؤخذ من كلامه ويرد عليه، وأن ليس في العلم كبير، وأن خطأ العالم لا ينقص من قدره، إذا توافرت النية الصالحة، والاجتهاد من أهله، وأن المجتهد المخطئ معذور، بل مأجور أجرا واحدا، كما في الحديث الشريف، سواء كان خطؤه في المسائل العلمية أو العملية، الأصولية أم الفروعية، كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وغيرهما.

وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب، هو ركونه إلى فكرة "التكفير" والتوسع فيه، بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه في مواضع كثيرة ومتفرقة من "الظلال" ومما أفرغه في كتابه "معالم في الطريق" أن المجتمعات كلها قد أصبحت "جاهلية". وهو لا يقصد بـ "الجاهلية" جاهلية العمل والسلوك فقط، بل "جاهلية العقيدة" إنها الشرك والكفر بالله، حيث لم ترضَ بحاكميته تعالى، وأشركت معه آلهة أخرى، استوردت من عندهم الأنظمة والقوانين، والقيم والموازين، والأفكار والمفاهيم، واستبدلوا بها شريعة الله، وأحكام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم".

وماذا في هذا من خلاف للحقيقة؟! إن هذه المجتمعات – بصفتها الجمعية، لا أفرادها الذين يعيشون فيها - قد ارتضت الحكم بغير ما أنزل الله (هل في شك من ذلك؟) واستبدلت شريعته (هل في شك من ذلك؟) وحاربت أولياءه من الدعاة إلى الله (هل في شك من ذلك؟) وهي بهذا قد ارتضت شرائع الكفر في نظمها وإن لم يكفر أفرادها وهو ما لم يدعيه سيد أبدا – أي كفر

الأفراد بعامة – أما كفر الأنظمة فلا يشك فيها مسلم يؤمن بالله ورسوله وفيه بقية من عقل! الأمر هنا هو لم التعجب دون إيراد الأدلة على نقض هذا الكلام، والاعتماد على إدارة المآقي في العيون وكأنما جاء الرجل بما استقرت الشرائع على خلافه؟ تكتيك رخيص مرفوض!

"وعلى هذا، ليس الناس في حاجة إلى أن نعرض عليهم نظام الإسلام الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي، أو القانوني، ونحو ذلك؛ لأن هذه الأنظمة إنما ينتفع بها المؤمنون بها، وبأنها من عند الله. أما من لا يؤمن بها، فيجب أن نعرض عليه "العقيدة أولا" حتى يؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وبالشريعة حاكمة".

قال سيد أن على الدعاة أن ينهضوا بدعوة الناس إلى فهم كلمة التوحيد والتركيز عليها حيث أن مثل هذا الواقع المرير قد يكون قد زعزع المستقرات من المعاني في عقول الكثيرين، وأن ما أن ينجلي الصدأ عن القلوب بفهم أبعاد التوحيد الحقة، فإن الصراع سينحسم أسرع ألف مرة مما لو اصطنعنا الحديث عن عدالة الإسلام ورحمة الإسلام وغيرها من الأبعاد الاجتماعية..

"وهذا ما أشار إليه في كتابه "المعالم" وفصله في كتاب "الإسلام ومشكلات الحضارة". وشبه مجتمعاتنا اليوم بمجتمع مكة في عهد الرسالة، وأن الرسول لم يعرض عليه النظام والتشريع، بل عرض عليه العقيدة والتوحيد".

وماذا في هذا الفرض إن كان لم يعلن تكفير الأفراد عامة؟! بل هو مجرد استنتاج من هؤلاء البشر ينبني على أنه دعا إلى الدعوة إلى التوحيد وتجديده في النفوس، كما فعل. وهذا دوران في الدليل (أو دور الدليل) كما يقول أصحاب علم الجدل والمناظرة لا محل للتوسع فيه هنا على أي حال، وقد فعل ذلك محمد بن عبد الوهاب من قبل حين دعا إلى نبذ عبادة القبور وإلى التحاكم للشريعة فهل كان هو كذلك من مكفّري الأمة؟ اللهم نعم، عند القرضاوي وأمثاله من المرجئة، الذين لا همّ لهم إلا الهجوم على سيد وعلى الإمام ابن عبد الوهاب وتلاميذهما، إرضاء للحكام، وتمشيا مع النظم الحاكمة الطاغوتية الحالية.

"كما رأى عليه رحمة الله أن لا معنى لما يحاوله المحاولون من علماء العصر لما سموه "تطوير" الفقه الإسلامي أو "تجديده" أو "إحياء الاجتهاد" فيه؛ إذ لا فائدة من ذلك كله ما دام المجتمع المسلم غائبا، يجب أن يقوم المجتمع المسلم أولا، ثم نجتهد له في حل مشكلاته في ضوء واقعنا الإسلامي.

وقد ناقشت أفكاره عن "الاجتهاد" وعدم حاجتنا إليه قبل أن يقوم المجتمع الإسلامي، في كتابي "الاجتهاد في الشريعة الإسلامية" وبينت بالأدلة خطأ فكرته هذه.

وكما ناقشت الشهيد سيد قطب في رأيه حول قضية "الاجتهاد" ناقشته في رأيه في "الجهاد" وقد تبنى أضيق الآراء وأشدها في الفقه الإسلامي، مخالفا اتجاه كبار الفقهاء والدعاة المعاصرين، داعيا إلى أن على المسلمين أن يعدوا أنفسهم لقتال العالم كله، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون!

وحجته في ذلك آيات سورة التوبة (أليس في سورة التوبة وآياتها حجة كافية!!!)، وما سماه بعضهم "آية السيف" (بعضهم الذي يذكره الشيخ بصيغة المبني للمجهول لخفض ذكره هو ابن القيم وابن كثير وغيرهما من عتاة المفسرين! فتأمل!) ولم يبال بمخالفة آيات كثيرة تدعو إلى السلم، وقصر القتال على من يقاتلنا، وكف أيدينا عمن اعتزلنا ولم يقاتلنا، ومد يده لمسالمتنا، ودعوتنا إلى البر والقسط مع المخالفين لنا إذا سالمونا، فلم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يظاهروا على إخراجنا".

أود هنا، قبل الاستطراد أن أسجل شعوري بالغثيان من نفاق هذا الرجل، الذي مثّل الشيخ سيد في ثياب شيطان تكفيري هدّام دمويّ، ثم يترحم عليه، ويلقبه بالشهيد! درءاً لصفة التعصب والحقد عن نفسه، وكأنما هو المنصف العادل في تقييمه! شذوذ وسقوط، ولو كان ألف قرضاوي وقرضاوي!

ثم سبحان الله العظيم !! الشيخ يقول بمنتهى الصراحة أن القرآن يخالف بعضه بعضاً!!! أيقصد في قوله "مخالفة آيات كثيرة" أي مخالفتها لآيات سورة التوبة؟ وهو الواضح من السياق، أم مخالفتها لفهم سيد لآيات التوبة ولم يأت هنا بدليل على الفهم الصحيح لآيات التوبة واكتفى بأن هناك الكثير مما يخالف (الله أعلم ماذا!؟) لآيات التوبة!!!!!! ويلغي في الوقت نفسه جهاد الطلب وهو مما استقر عليه الشرع بل من المعلومات من الدين بالضرورة كما في سيرة الرسول صلى الله ليه وسلم وسير خلفائه الأبرار، وأين قتال الفرس والروم من جهاد من اعتدى علينا؟ ولكنه الهوى الذي يردي بصاحبه، والضعف والهزيمة النفسية، وصغر النفس، ومحاباة الحكام، والرضوخ للحضارة المنتصرة.

"هذا ما تدل عليه الآيات الكثيرة من كتاب الله مثل قوله تعالى: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ" [البقرة: 190،191]. "فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً" [النساء: 90].

"فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا" [النساء: 91]. " وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ" [الأنفال: 61]. " لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" [الممتحنة: 8]".

هذه الآيات حق لا شك فيها ولكن هي في موضعها من التطبيق حسب الظروف والأحوال، فالأمر أمر مرحلية هذه الأحكام وتنزيلها على مناطاتها.

"والأستاذ سيد رحمه الله يتخلص من هذه الآيات وأمثالها بكلمة في غاية السهولة أن هذه كان معمولا بها في مرحلة، ثم توقف العمل بها، والعبرة بالموقف الأخير، وهو ما يعبر عنه الأقدمون بالنسخ، وقولهم)! من هم الذين تعنيهم بقولك – وقولهم - ولا تأخذ برأيهم وتلقي به عرض الحائط وتذكرهم بالمبني للمجهول يا شيخ قرضاوي!؟ هم أعلام التفسير على مرّ العصور!! ثم تأخذ على سيد ظلما أنه هاجم بعض المحدثين من العلماء وأشباههم ! في هذه الآيات: نسختها آية السيف ".لا إله إلا الله !! سيد لم يتخلص من هذه الآيات بقوله بالنسخ، بل إن قرأت كتبه تعلم أنه مما أُخذ على سيد في بعض أقواله أنه لا يرى النسخ في القرآن بشكل عام. بل أنت تخلصت من آية السيف في التوبة حتى بدون دعوى النسخ إذ لا يصح نسخ المتأخر بالمتقدم، ولكن تخلصت منها دون دليل!

"ولا أدري كيف هان على سيد قطب -وهو رجل القرآن الذي عاش في ظلاله سنين عددا يتأمله ويتدبره ويفسره- أن يعطل هذه الآيات الكريمة كلها، وأكثر منها في القرآن، بآية زعموها (!) آية السيف؟ وما معنى بقائها في القرآن إذا بقي لفظها وألغي معناها، وبطل مفعولها وحكمها؟"!

مرة أخرى لمن لا يفهم من المرات الأولى! لم يلغها سيد ولكنه رأى بحق أن كل آية تعمل في مناطها، فآيات كفوا أيديكم لها مناط تعمل فيه، وآيات أذن للذين ظلموا لها مناط تعمل فيه، وآيات وقاتلوا الذين يقاتلونكم لها مناط تعمل فيه وآيات قاتلوا المشركين كافة لها مناط تعمل فيه، فأين الخلاف في هذا يا فقيه عصرك!! ثم ما قولك "زعموها آية السيف"! هذا ما أطلقه عليها عمالقة العلماء الأئمة بحق، لا القرضاوية منهم، مثل ابن القيم في زاد المعاد، وابن تيمية في الفتاوى. عجيب جرأة هذا الرجل!

"ويقول الشهيد رحمه الله: إننا لا نفرض على الناس عقيدتنا، إذ لا إكراه في الدين، وإنما نفرض عليهم نظامنا وشريعتنا، ليعيشوا في ظله، وينعموا بعدله.

ولكن بماذا نجيب الناس إذا قالوا لنا: إننا أحرار في اختيار النظام الذي نرضاه لأنفسنا، فلماذا تفرضون علينا نظامكم بالقوة؟ إن كل شيء يجرعه الإنسان تجريعا رغم أنفه يكرهه وينفر منه، ولو كان هو السكر المذاب، أو العسل المصفى".!

نقول لهم ما قاله لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أوحى اليه ربه: أن لا وألف لا: لن نرضى بنظام يحكم الناس غير نظام الله إن كنا قادرين على تغييره، أما إن كنا لا نقدر على تغييره، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها!!!

"وما الحكم إذا كنا نحن -اليهود أو النصارى أو الوثنيين- أصحاب القوة والمنعة، وأنتم الضعفاء في العدة أو الأقلون في العدد؟ هل تقبلون أن نفرض عليكم نظامنا ومنهج حياتنا؟ كما هو شأن أمريكا اليوم، وتطلعاتها للهيمنة على العالم؟".

لا حاجة للاستفتاء في هذا فهذا هو الواقع يا فقيه الأمة، إذ إنهم يفرضون نظامهم علينا فرضاً أم أن هذا أمر لم تلاحظه، أم تدعي أن اليهود والنصارى يتركون المسلمين يحكمون بشريعتهم، وأين يحدث هذا في العالم، ما هذا الخلط والخبط؟!

"ومما ننكره على الأستاذ سيد رحمه الله أنه يتهم معارضيه من علماء العصر بأمرين:

الأول: السذاجة والغفلة والبله، ونحو ذلك مما يتصل بالقصور في الجانب العقلي والمعرفي.

والثاني: الوهن والضعف النفسي، والهزيمة النفسية أمام ضغط الواقع الغربي المعاصر، وتأثير الاستشراق الماكر مما يتعلق بالجانب النفسي والخلقي.

والذين يتهمهم بذلك هم أعلام الأمة في العلم والفقه والدعوة والفكر، ابتداء من الشيخ محمد عبده، مرورا بالشيخ رشيد رضا، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والمشايخ: محمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، وأحمد إبراهيم، وعبد الوهاب خلاف، وعلي الخفيف، ومحمد أبو زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومحمد المدني، ومحمد مصطفى شلبي، ومحمد البهي، وحسن البنا، ومصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، ومعروف الدواليبي، والبهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، وعلال الفاسي، وعبد الله بن زيد المحمود، ومحمد فتحي عثمان، وغيرهم من شيوخ العلم الديني.

هذا فضلا عن الكتاب والمفكرين "المدنيين" الذين لا يحسبون على العلوم الشرعية، من أمثال: د. محمد حسين هيكل، وعباس العقاد، ومحمد فريد وجدي، وأحمد أمين، ومحمود شيت خطاب، وعبد الرحمن عزام، وجمال الدين محفوظ، ومحمد فرج، وغيرهم في بلاد العرب والمسلمين".

الأستاذ سيد لم يذكر أحدا باسم، وهو تكتيك رخيص أن تضع على فم الرجل أسماء ناس من الناس لتستعدى عليه المشاعر، وإنما هو قال أن هناك الكثير من المسلمين "الطيبين" ووضع كلمة الطيبين بين قوسين، ليدل بها على غفلة عند البعض أو إغراض عند البعض أو ترخص عند البعض، ومن هذه الشخصيات ما فيها كل هذا بالفعل، ولكن تسمية الناس هي من عمل القرضاوي لا من عمل سيد، فسيد أكبر من مثل هذا الصغار.

"وقد حدثني الأخ د. محمد المهدي البدري أن أحد الإخوة المقربين من سيد قطب -وكان معه معتقلا في محنة 1965م- أخبره أن الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله، قال له: إن الذي يمثل فكري هو كتبي الأخيرة: المعالم، والأجزاء الأخيرة من الظلال، والطبعة الثانية من الأجزاء الأولى، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، والإسلام ومشكلات الحضارة، ونحوها مما صدر له وهو في السجن، أما كتبه القديمة فهو لا يتبناها، فهي تمثل تاريخا لا أكثر.

فقال له هذا الأخ من تلاميذه: إذن أنت كالشافعي لك مذهبان: قديم وجديد، والذي تتمسك به هو الجديد لا القديم من مذهبك.

قال سيد رحمه الله: نعم، غيرت كما غير الشافعي رضي الله عنه. ولكن الشافعي غير في الفروع، وأنا غيرت في الأصول.!

فالرجل يعرف مدى التغيير الذي حدث في فكره. فهو تغيير أصولي أو "إستراتيجي" كما يقولون اليوم".

هذا حوار سخيف وقصة عقيمة لا دلالة فيها، فأولاً واضح أن سيداً أراد ممازحة علمية، إذ لا يقارن نفسه بالشافعي إلا مجنون! ثم إنه لم يكن هو من عقد المقارنة، بل عقدها مُحدّثه، فأراد أن يعدل بها إلى أقرب من قول محدثه رشدا. ثم إن الأصول التي قصدها يعني بها أنه تناول شرح التوحيد، لا تبديل التوحيد، لذلك كان تعليقه على قول مُحدثه بعدم المقارنة، دفعا لحرج قوله له صراحة "لا، أنت أخطأت، فلا تشابه بيني وبين الشافعي، فهو غيّر آراءه في الفروع، وأنا كنت على فهم خاطئ في بعض الأصول فعدّلت فهمي لتلك الأصول، ولم أعدل الأصول".

ثم إن كتب سيد القديمة تمثل فكرا غير إسلامي بالمعنى الدعوي، بل فكر كفكر العقاد ومحمد حسين هيكل ممن أسماهم القرضاوي نفسه "الكتاب المدنيين الذين لا يُـعَدّون على العلوم الشرعية"، من هذا المنطلق تخلى سيد عن كتبه القديمة وتبنى كتبه الحديثة، كما نقل القرضاوي نفسه. وهو حين يقول إنه غيّر في الأصول يقول أنه غير في فهمه الخاص للأصول كما غـّير الشافعي في اجتهاده في الفروع، والشافعي لم يقصد أنه غير الفروع ذاتها بل غير اجتهاده هو، كذلك سيد يقصد أن الأصول كانت وستظل دائما كما هي ولكنه أدرك حقيقتها، لا كما يحاول شيخ الأمة القرضاوي أن يوحي أن سيداً يغيّر في أصول دين هذه الأمة!

قلت:

تحدثت عن عالمٍ جـــللٍ   حديثا عار عن الحيـــــاءِ

تروج سلعة مضمونها   عرفناه من قبل بالإرجاء

والله المستعان

د طارق عبد الحليم

واحسرتاه على ضياع الإنصاف!

الفقه في كتاب "في ظلال القرآن"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

وصلني من أخٍ شيخٍ حبيب، كتاب بعنوان "أقوال العلماء المنصفين في سيد قطب" لمؤلفه د مشاري المطرفيّ، نقل فيه كلمات لعدد من العلماء، لا أدري كيف "حشر" بينهم الحوينيّ، الذي هو تلميذ مُقلّد للألباني ليس إلّا، ليس لقوله في سيد أيّ وزن كان! وهي غلطة قلّلت من قيمة الكتاب في نظري.

والحق، رغم محاولة المؤلف إنصاف سيد، ودفع الظلم والتكفير عنه، فإن الكتاب لم يعجبني كثيراً، إذ لم يغنِ في هذا الصدد كثيراً!

فأنت ترى أن أقوال غالب من نقل عنهم يقول، بلا غضاضة: لم أقرأ كتبه، أو قرأت نزراً يسيراً منها! وكلهم يكرر نقطة أن سيداً كان أديباً، وهذه مشكلته! حتى الكاتب نفسه قرر ذلك في خلاصته لتقييم سيدٍ رحمه الله! ..

وهذا فيما أرى هراء في هراء، وصراخ في عراء! ... فإن سيداً - أو كتب سيدٍ أو أعمال سيدٍ إن شئت – ستظل أكبر كثيراً حتى من هؤلاء الذين سُئلوا عنه. فقد رأينا أنّ الله وضع لها القبول في الأرض بما لم يضع لكتب غيره ومنهم كلّ هؤلاء المسؤولين، بلا ريب. فكم من سمع بسيدٍ والظلال؟ وكم من سمع بكلّ هؤلاء، على شهرتهم وجلالة قدرهم عندي، إلا زلة الحوينيّ؟

فسيد عالمٌ أديبٌ فقيه، ضمّن تفسيره - كأي تفسير - مناقشات فقهية فيما تتعرض له الآيات، وهذا واضح في تفسيره، لا أفهم كيف يتجاهلونه هذا التجاهل المعيب؟ أم يحسبون أنه قفز علي تلك الآيات وتركها دون تعليق؟ وإن لم يكن هذا فقه، فما هو الفقه؟

ولننظر مثالاً مما تضمنه الظلال من فقه. ففي تفسير سورة النساء "يوصيكم الله في أولادكم" قال، وسأنقل جزءا معتبراً منه:

"هاتان الآيتان، مضافا إليهما الآية الثالثة التي في نهاية السورة، ونصها :يستفتونك. قل: الله يفتيكم في الكلالة: إن امرؤ هلك ليس له ولد، وله أخت، فلها نصف ما ترك. وهو يرثها - إن

لم يكن لها ولد - فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك. وإن كانوا إخوة رجالا ونساء، فللذكر مثل حظ الأنثيين. يبين الله لكم أن تضلوا، والله بكل شيء عليم] ..ص [590 :هذه الآيات الثلاث تتضمن أصول علم الفرائض - أي: علم الميراث - أما التفريعات فقد جاءت السنة ببعضها نصا، واجتهد الفقهاء في بقيتها تطبيقا على هذه الأصول. وليس هنا مجال الدخول في هذه التفريعات والتطبيقات فمكانها كتب الفقه - فنكتفي - في ظلال القرآن - بتفسير هذه النصوص، والتعقيب على ما تتضمنه من أصول المنهج الإسلامي..

يوصيكم الله في أولادكم: للذكر مثل حظ الأنثيين ..

وهذا الافتتاح يشير - كما ذكرنا - إلى الأصل الذي ترجع إليه هذه الفرائض، وإلى الجهة التي صدرت منها، كما يشير إلى أن الله أرحم بالناس من الوالدين بالأولاد ، فإذا فرض لهم فإنما يفرض لهم ما هو خير مما يريده الوالدان بالأولاد..

وكلا المعنيين مرتبطان ومتكاملان..

إن الله هو الذي يوصي، وهو الذي يفرض، وهو الذي يقسم الميراث بين الناس - كما أنه هو الذي يوصي ويفرض في كل شيء، وكما أنه هو الذي يقسم الأرزاق جملة - ومن عند الله ترد التنظيمات والشرائع والقوانين، وعن الله يتلقى الناس في أخص شؤون حياتهم - وهو توزيع أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم - وهذا هو الدين. فليس هناك دين للناس إذا لم يتلقوا في شؤون حياتهم كلها من الله وحده وليس هناك إسلام، إذا هم تلقوا في أي أمر من هذه الأمور - جل أو حقر - من مصدر آخر. إنما يكون الشرك أو الكفر، وتكون الجاهلية التي جاء الإسلام ليقتلع جذورها من حياة الناس.

وإن ما يوصي به الله، ويفرضه، ويحكم به في حياة الناس - ومنه ما يتعلق بأخص شؤونهم، وهو قسمة أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم - لهو أبر بالناس وأنفع لهم، مما يقسمونه هم لأنفسهم، ويختارونه لذرياتهم.. فليس للناس أن يقولوا: إنما نختار لأنفسنا. وإنما نحن أعرف بمصالحنا.. فهذا - فوق أنه باطل - هو في الوقت ذاته توقح، وتبجح، وتعالم على الله، وادعاء لا يزعمه إلا متوقح جهول! قال العوفي عن ابن عباس: يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ..وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض، للولد الذكر، والأنثى، والأبوين، كرهها الناس - أو بعضهم - وقالوا: تعطي المرأة الربع أو الثمن، وتعطي الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير. وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم، ولا يجوز الغنيمة!

اسكتوا عن هذا الحديث، لعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينساه، أو نقول له فيغير! فقالوا: يا رسول الله، تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس، ولا تقاتل القوم. ويعطى الصبي الميراث، وليس يغني شيئا - وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، ولا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم، ويعطونه الأكبر فالأكبر ..رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ..

فهذا كان منطق الجاهلية العربية، الذي كان يحيك في بعض الصدور اليوم - وهي تواجه فريضة الله وقسمته العادلة الحكمية.. ومنطق الجاهلية الحاضرة الذي يحيك في بعض الصدور اليوم - وهي تواجه فريضة الله وقسمته - لعله يختلف كثيرا أو قليلا عن منطق الجاهلية العربية. فيقول: كيف نعطي المال لمن لم يكد فيه ويتعب من الذراري؟ وهذا المنطق كذاك.. كلاهما لا يدرك الحكمة، ولا يلتزم الأدب وكلاهما يجمع من ثم بين الجهالة وسوء الأدب !

للذكر مثل حظ الأنثيين ..

وحين لا يكون للميت وارث إلا ذريته من ذكور وإناث، فإنهم يأخذون جميع التركة، على أساس أن للبنت نصيبا واحدا، وللذكر نصيبين اثنين.

وليس الأمر في هذا أمر محاباة لجنس على حساب جنس. إنما الأمر أمر توازن وعدل، بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى في التكوين العائلي، وفي النظام الاجتماعي الإسلامي: فالرجل يتزوج امرأة، ويكلف إعالتها وإعالة أبنائها منه في كل حالة، وهي معه، وهي مطلقة منه.. أما هي فإما أن تقوم بنفسها فقط، وإما أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده سواء. وليست مكلفة نفقة للزوج ولا للأبناء في أي حال.. فالرجل مكلف - على الأقل - ضعف أعباء المرأة في التكوين العائلي، وفي النظام الاجتماعي الإسلامي. ومن ثم يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغنم والغرم في هذا التوزيع الحكيم. ويبدو كل كلام في هذا التوزيع جهالة من ناحية وسوء أدب مع الله من ناحية أخرى، وزعزعة للنظام الاجتماعي والأسري لا تستقيم معها حياة. ويبدأ التقسيم بتوريث الفروع عن الأصول:

فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف .

فإذا لم يكن له ذرية ذكور، وله بنتان أو أكثر فلهن الثلثان. فإن كان له بنت واحدة فلها النصف.. ثم ترجع بقية التركة إلى أقرب عاصب له: الأب أو الجد. أو الأخ الشقيق. أو الأخ

لأب. أو العم. أو أبناء الأصول..

والنص يقول :فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ..وهذا يثبت الثلثين للبنات - إذا كن فوق اثنتين - أما إثبات الثلثين للبنتين فقط فقد جاء من السنة ومن القياس على الأختين في الآية التي في آخر السورة.

فأما السنة فقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجة من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن جابر " قال :جاءت امرأة سعد بن الربيع ، إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيدا وإن عمهما أخذ ما لهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: " يقضي الله في ذلك " فنزلت آية الميراث. فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عمهما، فقال: " أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك ..

فهذه قسمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للبنتين بالثلثين . فدل هذا على أن البنتين فأكثر، لهما الثلثان في هذه الحالة.

وهناك أصل آخر لهذه القسمة وهو أنه لما ورد في الآية الأخرى عن الأختين :فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ..كان إعطاء البنتين الثلثين من باب الأولى، قياسا على الأختين. وقد سويت البنت الواحدة بالأخت الواحدة كذلك في هذه الحالة.

وبعد الانتهاء من بيان نصيب الذرية يجيء بيان نصيب الأبوين - عند وجودهما -في الحالات المختلفة.مع وجود الذرية ومع عدم وجودها:

ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك - إن كان له ولد - فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث. فإن كان له إخوة فلأمه السدس ..

والأبوان لهما في الإرث أحوال:

الحال الأول: أن يجتمعا مع الأولاد ، فيفرض لكل واحد منهما السدس والبقية للولد الذكر أو للولد الذكر مع أخته الأنثى أو أخواته: للذكر مثل حظ الأنثيين. فإذا لم يكن للميت إلا بنت واحدة فرض لها]ص [592 :النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس. وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له في هذه الحالة بين الفرض والتعصيب. أما إذا كان للميت بنتان فأكثر فتأخذان الثلثين، ويأخذ كل واحد من الأبوين السدس.

والحال الثاني: ألا يكون للميت ولد ولا إخوة ولا زوج ولا زوجة ، وينفرد الأبوان بالميراث. فيفرض للأم الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب، فيكون قد أخذ مثل حظ الأم مرتين. فلو كان مع الأبوين زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف، أو الزوجة الربع. وأخذت الأم الثلث (إما ثلث التركة كلها أو ثلث الباقي بعد فريضة الزوج أو الزوجة على خلاف بين الأقوال الفقهية) وأخذ الأب ما يتبقى بعد الأم بالتعصيب على ألا يقل نصيبه عن نصيب الأم.

والحال الثالث: هو اجتماع الأبوين مع الإخوة -سواء كانوا من الأبوين أو من الأب، أو من الأم - فإنهم لا يرثون مع الأب شيئا، لأنه مقدم عليهم وهو أقرب عاصب بعد الولد الذكر ولكنهم - مع هذا - يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس. فيفرض لها معهم السدس فقط. ويأخذ الأب ما تبقى من التركة. إن لم يكن هناك زوج أو زوجة. أما الأخ الواحد فلا يحجب الأم عن الثلث، فيفرض لها الثلث معه، كما لو لم يكن هناك ولد ولا إخوة.

ولكن هذه الأنصبة كلها إنما تجيء بعد استيفاء الوصية أو الدين:

من بعد وصية يوصي بها أو دين ..

قال ابن كثير في التفسير: " أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية ..وتقديم الدين مفهوم واضح. لأنه يتعلق بحق الآخرين. فلا بد من استيفائه من مال المورث الذي استدان، ما دام قد ترك مالا، توفية بحق الدائن، وتبرئة لذمة المدين. وقد شدد الإسلام في إبراء الذمة من الدين كي تقوم الحياة على أساس من تحرج الضمير، ومن الثقة في المعاملة، ومن الطمأنينة في جو الجماعة، فجعل الدين في عنق المدين لا تبرأ منه ذمته، حتى بعد وفاته:

عن أبي قتادة -رضي الله عنه - قال :قال رجل: يا رسول الله. أرأيت إن قتلت في سبيل الله، أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " نعم. إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر " . ثم قال: " كيف قلت؟ " فأعاد عليه. فقال: " نعم. إلا الدين. فإن جبريل أخبرني بذلك ..أخرجه مسلم ومالك والترمذي والنسائي .

وعن أبي قتادة كذلك :أتي النبي - صلى الله عليه وسلم - برجل ليصلي عليه. فقال - صلى الله عليه وسلم - : صلوا على صاحبكم فإن عليه دينا " فقلت: هو علي يا رسول الله. قال: " بالوفاء؟ " قلت: بالوفاء. فصلى عليه .

وأما الوصية فلأن إرادة الميت تعلقت بها. وقد جعلت الوصية لتلافي بعض الحالات التي يحجب فيها بعض الورثة بعضا .وقد يكون المحجوبون معوزين أو تكون هناك مصلحة عائلية في توثيق العلاقات بينهم وبين الورثة وإزالة أسباب الحسد والحقد والنزاع قبل أن تنبت. ولا وصية لوارث. ولا وصية في غير الثلث.

وفي هذا ضمان ألا يجحف المورث بالورثة في الوصية." الظلال تفسير سورة النساء

أليس في هذا فقه، يا أولى الألباب**!**؟ أعيب أن يبدأ سيد بالحديث عن فقه المقصد من الحكم الشرعيّ، ليفهمه القارئ، ثمّ يُعرّج على تفصيل الحالات المختلفة للإرث؟ أأستطرد في نقل الفقه الذي ذخر به الظلال، في مواضعه، ليفهم هؤلاء أن الرجل عالمٌ بما يقول؟ بل هو عالمٌ تأصيلاً لا تفريعاً عن وصفه كأديب.

قد والله تاه عن هؤلاء أن سيداً إنما تبحّر في **"فقه المقاصد والمألات"**، تبحراً يعزّ على أحدهم، أجمعين أن ينفذ إلى دقائقه. وإنما فعل ذلك بقلم أديب يفهم العربية، ويعرف إلى جانب ذلك ومع ذلك، كيف ينفذ بهذه الأحكام، والأقوال، التي سردها غيره جافةً من الشعور، إلى قلوب القارئين المسلمين، ولو البسطاء منهم.

هؤلاء العلماء، نظراً لطبيعة بيئتهم النجدية والتعليمية، يعتبرون العالم هو من يكتب بأسلوب أهل الحديث لا غير ... كما يفعل بعض أشبار هذا الزمن ممن حفظوا أسماء رجالٍ ونقلوا جرحا من هنا وتعديلا من هناك، فصاروا علماءً**!!** هذا ليس إنصافاً بل اعتساف في القول ...

لقد نسي هؤلاء المتاعيس أنّ القرآن، معجزة الإسلام الأولى، هي في أسلوبه الأدبيّ قبل أيّ شئ، وبها تحدى الله العرب أن يأتوا بسورة من مثله. هو الأدب إذن، وهي نفس الأديب، التي تستشعر القرآن، وتفهم عنه، أكثر من أصحاب الجفاف الشعوريّ والتعامل المحض مع أسماء الرجال وأحوالهم. فأين الألبانيّ من مقام الشيخ سيد؟**!** نعم، أين هذا من ذاك؟ لقد أبدع سيد في التفسير، مما يحتاجه عصرنا الجاهليّ الطاغوتيّ، بما لم يأت به غيره، إلا النزر اليسير، مثل المودودي، والشيخين محمد ومحمود شاكر، والشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ الدوسريّ، الذي لا أدري لمَ لمْ ينقل عنه المطيري قوله في الشيخ سيد؟**!**

لقد تصدى الشيخ سيد لفقه النوازل، وهو لبّ العلم وأصله، في أهم قضية عقدية تعرض على بني آدم، ولها أرسلت الرسل وبها أنزلت الكتب، ألا وهي قضية "التوحيد"، ثم يُقال "هو أديبٌ وليس بعالم"**!!**

وإن من الحقّ على تلامذة سيدٍ، أو الأحرى، تلامذة تلامذته، فإن تلامذته هم جيلي الذي فنيَ أو كاد، أن يجمعوا كتاباً، أو مجلداً بعنوان "الفقه في كتاب الظلال". وأحسب أن سيكون أكثر من مجلدٍ أو اثنين. فإنّ هذا هو ما سيخرس أولئك المتكلمين، الذين يعتذرون عن سيدٍ بأنه "ليس عالماً، وإنما هو أديب**!** فرية في شكل إنصاف، وذمّ في لباس مدح، وقع فيه الكلّ، حتى من أراد إنصافه كالمطرفيّ في كتابه. ولا ألومه، فإن الغشاوة والضبابية التي فرضها على أولئك "العلماء" ممن لم يلحقوا بسيدٍ، أجمعين، كثيفة، لم ينفذ من خلالها بصيرة حتى هؤلاء الذابين عنه.

ثم كلمة أخيرة. أيجب أن يكون العالم ممن تحدّث في الجرح والتعديل تفصيلاً، ونقد الأسانيد، وقارنها وخرّج كتباً حديثية؟ اللهم هذا لغطٌ وعبثٌ ولهو حديث**!**

خذ الألباني مثالاً، ماذا عن عقيدته الإرجائية؟ هل منع هذا من اعتباره عالماً بالحديث، يؤخذ منه، مع التحفظات المرعية بهذا الشأن؟

فما أسموه سقطات سيد، هي كلها في كتبه التي تبرأ منها بعد، فأين مبادئ الجرح والتعديل هنا؟ حتى لو أخطأ الرجل، فأين هذا من عقيدة الإرجاء التي تبرر لحكام أفعالهم، وتنشر مبادئ سلمية، وتجعل أمثال الحويني، التلميذ، يفزع من أن ينطق بكلمة ضد المجلس العسكري أو السيسي، ويرتمي في أحضان آل زايد وآل سعود وآل تميم، وينزل ضيفاً على أمثال عبد اللطيف آل الشيخ**!!**؟

هل يمنع هذا من أن يخطئ سيد في بعض ما كتب، وأن يأخذه التوسع في العبارة إلى ما يتشابه من القول؟ اللهم لا، فكلّ ابن آدم خطّاء. لكن النظر بعين الحسد، كما هو الحال فيما كتب عنه القرضاوي مثلا، مما بيّنته في مقال طويل بعنوان "سيد قطب والقرضاوي"[62]، شرٌ لا يأتي منه خير أبداً.

[62] https://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73117

لكن، أين العدل اليوم، وأين النُصَفة، وبل أين العقل والمنطق؟ ذهبوا مع من ذهب، وتركونا مع تراب لا ذَهَبْ!

د طارق عبد الحليم

22 يونيو 2020 – 1 ذو القعدة 1441